715

روايات عبير

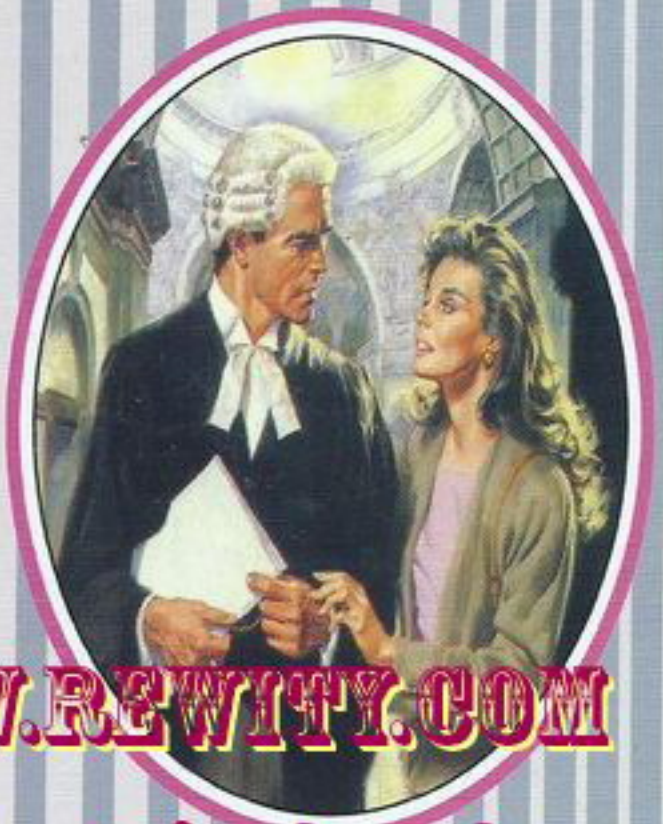

WWW.REWITY.COM

مرمورية

Charlotte Bucheister

رحلةُ غَرام

الأصليّة

روايات عبير

«رحْلةُ غَرام»

ذهبتْ في رحلة إلى «لويزيانا» لتبحثَ عن جذورها وتَختْليَ بنفسها وتريحَ أعصابها كيْ تقرر بعضَ الأمور الخاصة بها، وإذا هي تلتقي في غضون هذه الرحلة برجلٍ ليس كأيِّ رجل قابلته من قبل، فأخذ يَجذبُها بصفاته المميَّزة حتى وقعتْ في حُبّه، ولكنها تدخل في صراع، فهذا الرجل أسيرُ رغباته ونزواته وعلاقاته النسائية المتعدّدة. تُرى، ماذا ستفعل بعد أن تقعَ في حُبّه..؟ هل ستستمرّ في ذلك الحبِّ وتدخل المعركة أم تختار الهروب لترحلَ عنه إلى الأبد؟!

www.rewity.com
مـــر مـــدي

ثمن النسخة

لبنان	3000 ل.
سوريا	100 ل.
الأردن	1.5 دينار
السعودية	10 ريال
الكويت	750 فلس
الإمارات	10 دراهم
البحرين	1 دينار
قطر	10 ريال
مسقط	1 ريال
مصر	6 جنيه
المغرب	30 درهم
ليبيا	5 دينار
تونس	2.5 دينار
اليمن	300 ريال

ISBN 995338050 -3
9 789953 380506

العنوان الأصلي لهذه الرواية

The Wilderness Trail

تأليف

Charlotte Bucheister

الغلاف بريشة الفنان

Patrice Gordon

www.rewity.com
مـــرمـــوريـــة

رحلة غرام

(715)

الناشر

المركز الدولي للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.

الإدارة العامة والتوزيع

تليفون : **00 961 9 212 666** – فاكس : **00 961 9 212 665**

ص.ب **374** جونيه – لبنان

Email: info@inter-press.org www.inter-press.org

وكلاء التوزيع

دار ميوزيك – دار البشير – دار إي بي سي

جميع الحقوق محفوظة للناشر

يمنع منعًا باتًا نقل أي جزء أو قسم من هذا الكتاب وبأية وسيلة مرئية أو صوتية... إلخ
إلا بعد الحصول على موافقة خطية من الناشر

- 5 -

- 1 -

استسلم الجواد الأبيض المرقط، على مضض، لضغط اللجام، وابتعد عن الأعشاب الخصبة، وأخذ رأسه يتمايل في إيقاع وهو يخطو بتثاقل على الطريق. لقد شهدت عيناه خمسة عشر ربيعًا، ولم يعد يثب على قائمتيه الخلفيتين مرحًا، أو يرفع مقدمه بحركة مفاجئة، كما اعتاد أن يفعل من قبل. ولم يعد كذلك يدفع اللجام الحديدي من بين أسنانه. لقد أصبح سمينًا وكسولاً في خلال سني عمره، وبدا كأنه يدخر طاقته ليطرد الذباب، أو يلتهم العشب الأخضر الطويل، لعله يكتسب القوة استعدادًا لمواجهة فصل جديد من فصول الشتاء كما تعيشه ولاية «داكوتا الجنوبية». لم يكن الجواد يحتاج إلى أن ينظر إلى التقويم السنوي ليعرف أن شهر أيلول (سبتمبر) أوشك على الرحيل. كان يكفيه أن ينظر إلى الأشجار بأوراقها الخضراء وقد ظهرت عليها بقع ذهبية وبرتقالية، أو يرفع عينيه إلى السماء ليرى الطيور تستعد للبدء في رحلة الهجرة مع العلامات الأولى لبرد الشتاء. وحقول القمح المجاورة للمرعى، المتموجة، وقد نضج محصولها وباتت السنابل الذهبية تتدلى على سيقانها النحيلة. كان الجو لا يزال دافئًا في خلال النهار، ولكن الليالي لم تكن تخلو من الصقيع. وبدأ الجواد المرقط يتهيأ ليوطن جلده الخشن على احتمال الرياح الباردة الوافدة من جهة الشمال الغربي. وجاءت وخزة من كعب الحذاء لتضرب جانبه. وصهل الجواد ليعبّر عن استيائه قبل أن ينطلق ليجري في اهتزاز. كان الحمل على ظهره خفيفًا واليدان اللتان تمسكان باللجام رقيقتين. وارتفعت يد لتلمس رقبة الجواد في إطراء، وتبع ذلك جذب للجام. وعاود الجواد الآخذ في الهرم، الجري مسرورًا. ثم ما لبث أن عاد إلى مشيته المتثاقلة. وتنهدت الفتاة التي على ظهر الحصان العاري بعمق،

وتركت اللجام يتدلى أمامها بينما وضعت راحتها أسفل ظهرها وقد تدلت ساقاها على جانبي الحصان، وجلست في استرخاء على ظهره العريض، وأغمضت عينيها البنيتين الرقيقتين وقد شعرت بالدفء يسري في صدرها وساقيها. كان بصرها ينتقل بسرعة إلى ما حولها، إنها مجرد رؤية دون أن ترى شيئا محددًا. كان قوامها معتدلاً وشعرها بنيًّا دافئًا مثل عينيها وقد بدا كثيفًا، في قَصّة قصيرة تسمح لكثافته وتموجه الطبيعي بأن يشكل وجهها البيضاوي. وكانت ملامح هذا الوجه عادية بلا جمال صارخ، وإنما كانت تتمتع بصحة عامة تبعث الرضا.

* * * * *

كانت «جولي انطوانيت سميث» في حداثتها تندب قلة حظها من الجمال الساحر، ولكن أباها كان يضمها بين ذراعيه في نوع من العناق الذي اعتاده، ويعمد إلى إغاظتها بصوته الضاحك قائلاً:

- إن لك عينين جميلتين تربُن بهما، ولك أنف تشمين به، وشفتان سخيتان تشكلان فمك الذي يتكلم ويأكل بطاقم أسنانك الأبيض الناصع. ثم يرفعها إلى أعلى بينما يتدلى رأسها إلى أسفل، وينعم النظر في وجهها ويقول:

- ووفقًا لآخر عملية حسابية قمت بها، فإن لك أربعمائة وسبعًا وثلاثين نمشة، ينبغي لك أن تشكري الله عليها، لأنه نثر هذه الذرات الذهبية في وجهك. ولكنها كانت تعبس وتقطب بسبب النمش الذي كان بها وكأنه ليس موجودًا. وكان أبوها يداعب ركن فمها ويجعلها تبتسم رغمًا عنها ثم يختتم حديثه بلذة النصر قائلاً:

- وأعطاك كذلك بعض الخطوط الغائرة الجميلة على ذقنك. وكانت «جولي» تفهم أن أباها يتحيز إليها، ولكنها كانت تحس بارتياح كبير بعد تلك المداعبات. وعندما كبرت أدركت أنه كان يحاول أن يجعلها تشعر بالرضا،

وقد كفت منذ زمان طويل عن أن تلعن حظها من ذلك النمش وتلك الخطوط الغائرة في ذقنها. كما تعلمت أن تقبل المداعبات البريئة التي تتعرض لها بسبب ذلك. وعلى الرغم من أن «جولي» قلما كانت تحظى باهتمام الجنس الآخر، فإن الرجال الذين كانوا يألفون صحبتها كانوا يجدون فيها فتاة دائمة الابتسام تحسن الإصغاء والحديث، وكانت من النوع الذي يحن إلى الجلوس إلى أمه بينما تحرص صديقاتها على ارتياد الحفلات. كانت «جولي» قد عادت إلى بيتها بعدما أمضت أكثر من ثلاث سنوات درست في خلالها البرنامج المقرر لأربع سنوات كاملة، وأتمت تعليمها وحصلت على الدرجة الجامعية. لكن ماذا بعد؟ كانت تحس بشيء من عدم الارتياح وكان القلق يجيش في نفسها. لقد عادت إلى مسقط رأسها، وبدا لها أن كل شيء قد تغير، بينما كان كل شيء على ما هو عليه: مسقط الرأس، ثلاثمائة وستون فدانًا من الأراضي الزراعية على مسافة ستة وتسعين كيلومترًا من «يانكتون» في ولاية «داكوتا الجنوبية» حيث ظل أبواها طوال واحد وعشرين عاما من حياتهما يفلحان تلك الأرض. وكانت حياة طيبة، لكنها لم تكن تخلو من المصاعب أحيانًا بسبب الطقس وأثره في المحاصيل، لكن.. تلك كانت حياة أبويها وليست حياتها هي.

* * * * *

وتوقّف الجواد المرقط ليأكل بصوت طاحن من كتلة كثيفة من العشب، ولكن «جولي» استحثته على السير، وقالت:

- لو أنك أكلت أكثر من ذلك يا «كشاف» لانفجرت معدتك. واستجاب الحصان مطيعًا وواصل السير متثاقلاً. وتنهدت «جولي» وخاطبته:

- يا لك من عجوز مسكين. لقد تغيرت أنت أيضًا مثلي. صدق من قال: «إنك لن تستطيع العودة ثانية».

* * * * *

www.rewity.com

كان والدا «جولي» قد عاشا بمفردهما في خلال السنوات الثلاث الأخيرة، ولم يعودا قادرين على رعاية أمور ابنتهما. فهما لا يستطيعان أن يعترفا بأنها قد أصبحت الآن راشدة. لقد تزوجت أختها التي تكبرها بعام واحد ورزقت طفلين وعاشت حياة تختلف تمامًا عن حياة «جولي». وأدركت هذه أن كل شيء قد تغير، حتى «جون تالبوت» ذاته. رأت «جولي» سيارة «جون» «البك أب» تنتظر عند منعطف على جانب الطريق الزراعي، وكان بقامته الطويلة التي لفحتها الشمس يقف على حافة حقل القمح وعضلات ذراعيه تلمع في أشعة الضحى، ورفع إحدى ذراعيه محييا بينما ظهرت بين أسنانه واحدة من سوق القمح، ووجدته يخطو خطى واسعة إلى حافة الحقل، واقتربت منه على ظهر حصانها وامتدت يداه الغليظتان تحيطان بها، وحملها إلى الأرض وخفض رأسه تجاهها يلتمس عناقها. واستجابت «جولي» على فطرتها وقد أحست به يقترب منها، وارتاحت إلى بريق العاطفة البادي في عينيه السمراوين الذهبيتين وإلى ابتسامته وهو يقول:

– هيه... لقد مضى وقت طويل منذ خرجت آخر مرة إلى المزرعة. ووجدت «جولي» نفسها تلتصق بكتفه. وامتدت ذراعه القوية تشدها إليه وجعلت ذراعها تلتف حول وسطه بينما أخذ الحصان يرعى وقد أغضى عنهما وهما يسيران في بطء تجاه حقل القطن. واندمجت «جولي» في الحديث الذي يدور عادة بين سكان المنطقة:

– إن أبي يقول إن موعد حصاد قمحك قد حان. ونزع «جون» واحدة من سوق القمح قبل أن يجلس تحت شجرة ظليلة وأخرج الحبات الذهبية من السنبلة وألقى باثنتين في فمه، وقال:

– ما زالت فيه نسبة كبيرة من الرطوبة. وبعد يومين مشمسين يكون جاهزا للحصاد. ودفع قبعته إلى الوراء وأضاف:

– سوف يكون فصل حصاد طيبا. وعلقت «جولي» قائلة:

– إن أبي يشكو آلامًا في كتفه ولابد من أن المطر سيسقط قبل مساء الغد.

وابتسم «جون» وضمها بين ذراعيه وقال:

– بلغيه نيابة عني أن ينتظر يومين آخرين. وهمَّ بعناقها فأدارت رأسها. ولمست شفتاه وجنتيها، لكنها أفلتت منه وسألها في هدوء:

– ماذا بك يا «جو»؟ تنهدت وأجابت:

– لا أدري. وأدارت بصرها إلى الوراء لتلقي عليه نظرة استطاع معها أن يلمح آثار الحزن. وواصل الحديث قائلا:

– لقد مضى أسبوع منذ قدومك. ألم تتلقي أي رد على طلبات العمل التي تقدمت بها؟

– لم أتقدم بأي طلب للعمل. وارتفع حاجباه بعض الشيء. وتنشقت أنفاسها وهي تحول عينيها عن وجهه. ولكنه كان يعرف الكثير مما تفكر فيه. وقالت:

– لقد حصلت على الدبلوم بالفعل، ولكنني لا أعرف ماذا أفعل بها. عندئذ قال «جون»:

– إن متخرجات أقسام الاقتصاد المنزلي يمكنهن أن يصبحن زوجات ممتازات! وعلى الرغم من أن تعليقه كان يعني لها شيئًا من المضايقة فقد عرفت أن العبارة كانت نوعا من جس النبض لعله يعرف رأيها، ولكنها لم تكن تستطيع أن تخبره صراحة بأنها لا تحبه، أو على الأقل لم تكن تحبه بالطريقة التي تريد أن تحب بها الرجل الذي سيصبح زوجًا لها. كان «جون تالبوت» حلم أية فتاة. فهو لم يكن جميل الطلعة فحسب، بل كان صلبًا يمكن الاعتماد عليه. وكانت أي نظرة منها إلى ملامحه الملوحة بأشعة الشمس تجعلها تعجب من نفسها – كيف لا تحرص على أن تفوز بالرجل الذي ظل

www.rewity.com

ينتظرها خمس سنوات. لم تكن تنكر أن «جون» له سحر يجتذبها إليه، ومع ذلك لم تدق الأجراس ولم تسرع ضربات قلبها عندما أمسك بيديها، وكانت ترى أنه ليس عدلا أن تتزوج به وهي تعرف حقيقة شعورها نحوه. وجاء صوته الخشن الهادئ يسألها:

– هل فكرت مرة لماذا لم أقدم إليك خاتم الخطبة عندما كنت طالبة في الكلية؟

وأومأت برأسها وهي تشعر بالذنب إلى الدرجة التي جعلتها لم تستطع معه أن تجيب صراحة. وتابع قوله:

– كنت أعرف أنك تستلطفينني بل ربما أحببتني، ولكنك لم تقعي في حبي حقيقة. وظهرت على وجه «جولي» علامات الألم، واضطر «جون» إلى أن يمد يده ليرفع ذقنها الذي كاد يغوص في صدرها وقال:

– كنت في الثامنة عشرة من عمرك وكنت في الرابعة والعشرين وقررت أنه من الحكمة أن أنتظرك حتى تكملي دراستك. وهمست «جولي»:

– أحس كما لو كنت أدنى مخلوق على الأرض يا «جون». أعترف بأنني لم أقع في حبك. أحس باهتمام نحوك لم أشعر به تجاه شخص آخر من قبل. أحبك ولكن بمعنى آخر. وأحست بأصابعه تنشب في كتفيها تنفيسا عن الألم العميق الذي أبى وجهه أن يبوح به، وابتعد عنها وظل يستند إلى جذع الشجرة. وقال:

– الطريقة التي تحبينني بها لن تشفي غليل أيٍّ منا لزمن طويل. كانت ابتسامته تعكس الأسى، وبدت المرارة واضحة على وجهه وأكمل:

– وماذا تفعلين؟ هل تقيمين هنا؟ وهزت رأسها هزة لم يكد يلحظها، وأجابت:

– لا أعتقد ذلك. لقد عدت إلى المزرعة لأجمع شتات أفكاري بعد ثلاث سنوات عانيت فيها الانتظام في الدراسة والواجبات المنزلية وغيرها. أحس

كأن شخصا ألقى بي على الشاطئ. لقد ظننت أن العودة سوف تعطيني فرصة للبدء من جديد، ولكنني الآن أكثر اضطرابًا. لا أريد أن أقبل أي عرض للعمل، ولكنني لا أريد كذلك أن أرهق أبويَّ بالإنفاق عليّ. لقد كلفتهما الكثير.

– كل شيء سيكون خيرا بإذن الله.

– آمل ذلك.. لكلينا يا «جون»! وكان يحدق إلى الأرض المزروعة دون أن يبصر شيئًا محددًا، ثم تحول إلى «جولي» وقال:

– هل أطمع في أن تدوم صداقتنا؟ وامتدت يده تعبث بشعرها وتذكرت سنوات صباها، وقالت:

– بالتأكيد. وابتسم وهو ينهض برشاقة على قدميه، ونهضت هي الأخرى ووقفت صامتة إلى جانبه. واستأنف الحديث:

– دعي عنك هذه الكآبة يا حبيبتي. لا تظني أنني فوجئت. أعتقد أنني كنت سأدهش حقًا لو أنك تحبينني بالفعل. وتعانق الاثنان فيما كانت عيناها مخضلتين بالدموع. وقالت:

– الخالة «بريجيت» ستقطع رأسي لأنني أفرّط فيك. وضحك «جون» وقال:

– لا تقولي إن خالتك المشبوبة العاطفة هنا!

– إنها كالعذراء داخل الشرنقة. كيف تجرؤ على أن تسميها مشبوبة العاطفة. إن أمي تقول إنها لم تذق طعم القبلة في حياتها.

– إنها في رأيي المرأة التي تعرف معنى الحب. كانت تلك الإجابة قد حيّرت «جولي». وتركها لحيرتها وقال:

– إن العم «راي» يبحث عني الآن ولابد من أن أنطلق. لم تكن «جولي» قد أدركت أنه اعتزم الرحيل حتى ابتعد عنها بضع خطوات فصاحت تناديه:

www.rewity.com

– «جون».. إنني.. إنني آسفة. كان «جون» قد أحس بكتفيه يتصلبان بعض الشيء قبل أن يلتفت إليها. ولوّح بيديه، ومع ذلك سرعان ما ابتعد عنها تجاه سيارته. ووقفت «جولي» ترقبه قبل أن تعود إلى جوادها السمين الذي كان لا يزال يملأ بطنه بالكلأ.

انغلق الباب الداخلي في المنزل المكوّن من طابقين وقد أحدث بعض الضجيج، بينما كانت «جولي» تجتازه إلى الداخل. ولم تكن تحس بأنها أحسن أو أسوأ حالاً مما كانت في الصباح. كانت قد اتخذت قرارًا حاسمًا فيما يخص المكان الذي يمكن أن تعمل فيه، إذ قررت ألا يكون ذلك بأية حال في مكان قريب من مسقط رأسها، حتى لا يتيح ذلك فرصة أمام «جون» لمعاودة الضغط عليها للزواج به. وجاء صوت مهيب من شرفة في الداخل:

– مرحبا.. من دخل؟!

– أنا يا خالة «بريجيت». قالت «جولي» ذلك وهي تدير رأسها قرب الباب ولوّحت بيدها قائلة:

– أين أمي؟

– إنها في المدينة تشتري بعض البقالة. وهمّت «جولي» بالتوجه إلى حجرتها، ولكن الخالة أشارت إليها:

– تعالي واجلسي معي. وكان شعر الخالة «بريجيت» بلونه الرمادي قد التفّ في كعكة صارمة، وكانت «جوي» تنظر إلى خالتها التي تكبر أمها باثني عشر عامًا على أنها امرأة عملية وحازمة. ولكن تعليق «جون» جعل «جولي» تتعجب كثيرًا وتفكر في مدى صدق الصورة التي تراها بها. فالملامح التي تبدو عليها الآن ربما كانت في يوم من الأيام جذابة حقًا. وسألتها الخالة:

– ماذا فعلت منذ عودتك من الدراسة؟ كانت خالتها قد أمضت الثلاثين عامًا الأخيرة في مهنة التعليم وكانت أسئلتها تصل إلى «جولي» وكأنها أوامر.

واستغرقت الفتاة في شيء من التفكير ثم أجابت:

– كنت أستريح من عناء الامتحانات النهائية، كما كنت أحاول أن أرسم صورة لما عساي أن أفعله في المستقبل.

– إنك تتكلمين وكأنك تتحدثين عن مشكلة خطيرة. كانت «بريجيت كارسون» قد لاحظت بالفعل التعبير المضطرب على وجه «جولي». ومضت تقول:

– كأنه أمر خطير بالفعل!

– نعم. قالت «جولي» ذلك وحاولت أن تدير وجهها حتى لا تواجه نظرة خالتها المتفحصة، وواصلت الخالة قائلة:

– أين كنت هذا الصباح؟

– كنت في الخلاء مع «جون».

– إنني على ثقة بأن لديه إجابة عن المأزق الذي تعيشينه.

– نعم... كان لديه اقتراح. وبدا صوتها رقيقًا وحازمًا في آن واحد، وأكملت:

– إنني لم أقع في حبه حتى الآن يا خالة «بريجيت».

– أشعر بالأسف لك ولـ «جون» في الوقت ذاته. كان من الممكن أن يكون زوجًا وأبًا صادقًا في حبه لك. هل أنت واثقة بشعورك نحوه؟

– ما هو الحب؟ طرحت «جولي» السؤال وهي تستدير من النافذة نحو خالتها وأكملت:

– إن عمري إحدى وعشرون سنة ولا أعرف حتى الآن ما هو الحب؟

– إن ذلك يا عزيزتي سؤال أبدي سوف يتردد طالما كان هناك أحياء على الأرض. وارتفع حاجبا خالتها القاتمان وقالت:

– لقد أدركت أنك لم تقعي في حب «جون» بعد، وإلا لما طرحت هذا السؤال.

www.rewity.com

– هكذا تتخلصين من الإجابة عن السؤال.. أرجوك ألا تكرري لي الكلام الذي تقوله أمي: «الحب يعني أشياء كثيرة بالنسبة إلى الكثيرين».

– أعتقد أن الحب الذي تتحدثين عنه، حيث تدق الأجراس، شيء نادر، لأنه حب بلا أنانية. وقليل من الناس من يستطيع أن يعطي من مشاعره عطاءً كاملاً حرًا. وهناك من يشقون كثيرًا في سبيل العثور على ذلك الحب، لكنهم لا يجدونه، ومع ذلك فهناك قلة من المحظوظين يعثرون عليه حقًا.

– وهل عثرت عليه يا خالتي «بريجيت»؟

– نعم.. ذات مرة. ولكن حادثة السيارة أخذته مني. وعلت وجهها ابتسامة حزينة، وأكملت:

– لقد حطمني تمامًا ذلك الحب. إن الذي تتحدثين عنه حب نفيس.

– هل تعتقدين أنني سأعثر عليه؟

– ليس بتلك الملامح الكئيبة التي تعلو وجهك. كانت «بريجيت» قد اختارت الكلمات التي ساعدت «جولي» على أن تخرج من شعورها بالكآبة.

– حسنًا، إنني لا أتطلع إلى الرحيل، كما أني لا أريد الإقامة هنا، ولابد من أن أشغل نفسي بشيء.

– الواقع أنه من الصعب على الإنسان أحيانًا أن يتخذ القرار عندما يكون وسط من يعرفهم؛ لأنه يلح في طلب آرائهم على الرغم من أنه يعرف أنها لا تفيد. وفي رأيي أن ترحلي لمدة أسبوع أو أسبوعين. ارحلي وحدك إلى أي مكان واسترخي واستمتعي بوقتك، وسوف تدهشين كيف ستصبح الأمور بعد ذلك في غاية الصفاء. وهزت «جولي» كتفيها وقالت:

– لا أعرف مكانًا معينًا أذهب إليه.

– لكن هناك بالتأكيد مكانًا تريدين أن تذهبي إليه. ولاح في عيني «جولي» شعاع ضوء للحظة. فقد تذكرت رغبة ظلت حبيسة نفسها منذ طفولتها

وقالت:

– ربما.. ولكنه مكان بعيد، وليس في وسعي أن أحلم برغبات متطرفة.

– وماذا يضيرك لو تحدثت بما في نفسك مبينة إلى أين تذهبين لو توفرت لك النقود؟

– سأقول شيئًا قد يبدو غريبًا على مسمعك، فقد ظللت أفكر في الذهاب إلى «لويزيانا»، حيث كانت جدتي الكبيرة لأمي أو غيرها من أجدادي يعيشون. إنني لم أكف عن التفكير فيما إذا كانت «كاميرون هول» ما زالت قائمة هناك؟

– إنه لشيء غريب حقا حين نعرف كيف نجح هذا السلف الوحيد لنا في أن يصبح جزءًا من حياتنا إلى هذا الحد. وتفحصت العينان القاتمتان «جولي» بعناية، وواصلت تقول:

– لقد سميت باسمها: «جولي أنطوانيت». كانت البنات يحملن أسماءً فرنسية عبر السنين.

– لا يعنيني ذلك، لأن حظ «جولي» من الجمال والفتنة أكبر بكثير مما كانت عليه «جولي سميث». وقهقهت «بيريجيت» ملء فمها:

– لا بد من أن هناك وسيلة تستطيعين بها أن تقومي بهذه الرحلة. كان عقل خالتها يعمل بشكل يكاد يكون ملحوظًا بينما راحت «جولي» ترقبها وهي تزيح الكتاب عن حجرها وتنهض لتقف:

– لا أعرف كيف.

– إن لديّ مبلغًا من المال لا بأس به ادخرته ولم أفكر قط لماذا. لم أحضر لك هدية التخرج في الجامعة، لأنني أردت أن تختاريها بنفسك. وهأنت قد اخترتها بالفعل: رحلة إلى أرض الرافد: إلى «لويزيانا». وابتسمت خالتها ولهثت «جولي» وقالت:

www.rewity.com

– إنه مبلغ كبير لا أستطيع أن أتركك تفعلين ذلك.

– وكيف تستطيعين أن تمنعيني؟

- 2 -

كان كل اعتراض تثيره «جولي» يجد ردًّا منطقيًّا، حتى وجدت نفسها تجلس إلى المكتب حيث بدأت خالتها تخطط معها للرحلة. كان من الضروري أن تذهب سيارة «جولي» «الفولكس واغن» الصغيرة للفحص الدقيق قبل الرحلة، بالإضافة إلى استكمال بعض الملابس. وكان من الضروري أن تجري بعض الاستفسارات حول مكان المبيت في أقرب مدينة إلى مستعمرة «كاميرون هول»، بالإضافة إلى تقدير المبالغ المطلوبة للوقود والطعام والمبيت. وعندما رجعت أمها من المدينة كان قد تم وضع خطة الرحلة الكاملة، وقامت الخالة «بريجيت» بعرضها عليها كأمر قد تمّ الاتفاق عليه. وعندما رأت «جولي» كافة تكاليف الرحلة صدرت عنها أنّة ألم وقالت:

– إن أقل ما أقبله هو أن تأتي معي يا خالتي «بريجيت» لتستمتعي بعض الشيء، خاصة وأنت التي ستدفعين كل النفقات. وردّت خالتها في حزم وسخرية:

– ليس هذا هدف الرحلة. فالفكرة منها أن تخرجي وحدك وتستمتعي، ولن يتحقق ذلك إذا أصررت على أن تصحبي عانسًا طوال الرحلة. ولم تنجح أي محاولة في تغيير القرار الذي اتخذته الخالة. ووجدت «جولي» نفسها تستغرق في تنفيذ الخطة. ولم يمض أسبوع حتى كانت سيارتها قد أصبحت صالحة للرحلة، ووصلت إفادة تؤكد وجود أماكن للمبيت، أما الحقائب فقد تم حزمها. وعندما قادت على الطريق العام سيارتها بلونها الذي يشبه لون

التوت البري، أحست بأنها أسيرة فيض من المشاعر. كان هناك شيء واحد يمكن أن يعكر عليها صفو الرحلة، وهو أنها قد لا تجد أثرًا لـ «كاميرون هول»، فقد أوضح الرد الذي جاءها أن أماكن المبيت متوفرة، ولكنه ذكر كذلك أنه ليس لديهم معلومات عن مستعمرة تحمل اسم «كاميرون هول». وأسرعت خالتها توضح أن «كاميرون هول» قد بيعت بعد الحرب الأهلية بوقت قصير بسبب الضرائب. وأثارت احتمالاً بأن تكون قد أطلق عليها بعد ذلك اسم آخر. وكانت إعادة تسمية المستعمرات أمرًا شائعًا في ذلك الوقت. وعلى الرغم من أن «جولي» كانت تريد أن تسرع في القيادة، فقد استمتعت بوقتها وقسمت الرحلة على مراحل أكثر من أربعة أيام بقليل. وكانت تقود على مهل في الطريق الفرعية لتستمتع بالطبيعة الجميلة، وتجنبت الطرق الحديثة التي تتيح لها قيادة أسرع، ومع ذلك شعرت بنبض في قلبها يدق أكثر من العادة عندما دخلت سيارتها إلى حدود ولاية «لويزيانا». وأحست كما لو كانت عائدة إلى وطنها. وكانت الساعة السادسة مساء، وكانت «جولي» على مسافة تقل عن المائة والستين كيلو مترا من مقصدها. ولولا رغبتها القوية في أن تستمتع برؤية ذلك القسم الأخير من الرحلة في خلال ساعات النهار، لأكملت السير، ولكنها قادت السيارة على مضض نحو الطريق المؤدي إلى أحد الفنادق الصغيرة، بعدما قررت أن تستيقظ في وقت مبكر من اليوم التالي لتستأنف الرحلة، ولتستمتع بمنظر الريف الجميل دون خشية منها لدى حلول الظلام. وفي الصباح اخترقت الغابات الوطنية حول «ألكسندريا» وهبطت الطريق إلى «أوبيلوساوس» و «لافاييت» واستدار بها الطريق إلى «سانت مارتنفيل» في آخر مرحلة من الرحلة. كانت هناك لافتة على الطريق وسط المدينة تدعوها إلى زيارة شجرة بلوط «إيفانجيلين» التي خلدتها أشعار «لونغفيلو». ولكن «جولي» كبحت جماح رغبتها وتغاضت عن الزيارة للمكان المثير. كان أمامها

www.rewity.com

ثلاثة أسابيع للسياحة وكان عليها الآن أن تبحث عن مكان رخيص ومريح تقيم فيه. ووقفت بسيارتها أمام أحد المطاعم، وقررت أن تسأل أحد الأهالي لعله يدلها على مكان تستأجر فيه غرفة تخدم فيها نفسها وتوفر أجر الفندق ونفقاته. وبعدما طلبت فنجانًا من القهوة سألت الفتاة عمّا إذا كانت تستطيع أن تجد لها مثل ذلك المكان. قدمت إليها الفتاة إحدى الصحف المحلية لكنها لم تجد بغيتها في القسم المخصص للإعلانات. وعندما عادت الفتاة ومعها القهوة سألتها:

– هل تعرفين وسيلة أخرى أبحث بها؟ وهزّت الفتاة رأسها بالنفي ونظرت نحو الطاولة الكبيرة التي عليها المشروبات، وتذكرت فجأة. كان هناك ثلاثة رجال يجلسون قرب الطاولة. وقالت الفتاة:

– ربما أجد لك مكانًا، دعيني أستوضح. واتجهت الفتاة نحو الرجال الثلاثة وربتت كتف أحدهم وأخذت تحدثه وهي تشير إلى «جولي». ولم تمض ثوان حتى كان الشاب قد حضر في صحبتها إلى حيث تجلس وكانت عيناه الزرقاوان القاتمتان تتأملانها بينما كانت الفتاة تقدمه إليها:

– هذا «جي لوبلان» يا آنسة. أعتقد أنه يستطيع مساعدتك. وانسحبت الفتاة بعدما شكرتها «جولي». وقال الشاب:

– إنني سعيد بمقابلتك يا آنسة. وأدركت «جولي» من خلال ابتسامته أنه يريد أن يستأثر باهتمامها. وقالت وهي تبتسم:

– «سميث».. «جولي سميث». وشجعها على الحديث فقال:

– أخبرتني «دينسي» – التي قامت على خدمتك هنا – بأنك تبحثين عن مسكن تقيمين فيه.

– نعم. أبحث عن مكان أستطيع أن أستفيد فيه من تسهيلات المطبخ، ولن تطول إقامتي أكثر من أسابيع قليلة. هل تعرف مكانًا تتوفر فيه الشروط؟

وأجاب «جي لوبلان» في هدوء، وضحك عندما رأى حاجبيها يرتفعان بشكل ظاهر، وقال:

– بيتي.. حيث يعيش أبواي أيضًا. وأضاف العبارة الأخيرة في لهجة مؤكدة. ثم تابع يقول:

– كانا في الماضي يأويان الغرباء ولو أنهما لم يستقبلا أحدًا منذ مدة طويلة.

– هل تظن أنه يمكن إقناعهما بالسماح لي بالإقامة؟

– أعتقد ذلك لكن دعيني أصطحبك إلى هناك لتتحدثي بنفسك معهما، لكن أحب أن أوضح أن في المكان حجرة نوم كبيرة، أما وجبات الطعام فتتناولينها مع الأسرة. وأخذ يعاون «جولي» لتزحزح كرسيها إلى الخلف بعيدًا عن المنضدة. وعندما تحسست حقيبتها لتدفع ثمن القهوة تدخل «جي» ووضع قطعة من النقود على المنضدة وأشار إلى القائمة على الخدمة لتأخذ النقود ثمنًا للقهوة التي شربتها «جولي». وقال:

– إنه شرف لي. وعندما تركا المطعم أحست «جولي» أن من واجبها أن تتفحص الرجل الذي يسير إلى «جوارها». وقدرت أن «جي لوبلان» كان في بداية العشرينيات من عمره، ويكبرها بسنة أو سنتين. كان نحيلاً ورشيقًا، وشعره بني داكن. أما ملامحه فكانت تتمشى مع نحول جسمه. كان حاجباه قاتمين مقوسين وأنفه أرستقراطيًا مستقيمًا وفمه وسيمًا. أما عيناه فكانتا تلمعان وتتلألآن وهما تعكسان الضوء. كان يلبس سروالاً قاتم اللون وقميصًا قطنيًا زاهيًا، ومظهره يعكس إحساسًا بالثقة والارتياح. وأحست «جولي» أنه يدرك سحرًا في نظراته يستغله كلما واتته الفرصة. وعرفت أنه ينبغي لها أن تحترس لذلك مستقبلا إذا ما قدر لها أن تقيم معه في بيت واحد. كانت تعليماته محددة وهو يرشدها طوال الطريق إلى البيت. وكانت قد قدرت أنه ربما طلب أن يقود السيارة بنفسه، ولكنه علق بأنه يفضل النظر إليها على

www.rewity.com

النظر إلى الطريق الذي يسيران فيه. وقال في النهاية:

– البيت الأبيض على الناصية. هناك مكان للسيارات خلف المبنى. وأحست بغرابة مخارج الكلمات في صوته. لم تكن لهجته كلهجة أهل الجنوب. واتبعت تعليماته وسارت بالسيارة إلى وراء المبنى. لم تكد السيارة تقف حتى خرج «جي» واستدار ليفتح لها الباب. وأحست بشيء من القصد الشخصي في مجاملته. ولم تدرِ كيف تتصرف إزاءه. وحاولت أن تمد يدها إلى مقبض الباب لكن يده كانت هناك قبلها وامتدت يده الأخرى لتقودها إلى البيت. كانت الغرفة التي دخلتها حجرة لمعيشة الأسرة، فيها مقاعد بيضاء وأرائك كثيرة وكانت هناك شجيرات تعكس الخضرة الطبيعية في المكان، بعضها يتدلى من السقف العالي في أوانٍ معلقة بينما كان بعضها الآخر من فصائل شجر المطاط ينمو في أحواض خشبية ضخمة وضعت على الأرض المغطاة برقائق الفلين بينما استقر بعضها الآخر على المناضد كنوع من الزينة. ولم يكن غريبًا أن تعكس الحجرة الجو الاستوائي بالنسبة إلى الحرارة والرطوبة اللتين تميزان مناخ «لويزيانا». وبادرها قائلاً:

– إذا انتظرت هنا فسأحضر والديَّ. وأومأت بالموافقة. وذهب ينقل الخبر. ووقفت «جولي» تحدق إلى الحجرة وتبدي ارتياحا إلى ما تراه. كان المبنى قديمًا ولكنه معتنى به بصعب تقديره. وسمعت طقطقة زوج من الأحذية آتيًا من الردهة العريضة فتنبأت بعودة «لوبلان» ومعه آخر.

– ها هو ذا الضيف الذي أخبرتك عنه يا أمي. وكانت هناك امرأة قصيرة لا تصل قامتها إلى متر ونصف المتر تقف إلى جانب «جي». كانت ممتلئة الجسم على نحو جميل، وتبدو عليها الأمومة بشكل واضح، وكانت خصلات من الشعر الرمادي تبدو في الكعكة التي استقرت فوق رأسها. ومدت يدها الصغيرة إلى «جولي» وقد أشرق وجهها بابتسامة:

– قال ابني إنك تريدين مكانًا للإقامة يا آنسة «سميث». وأومأت «جولي» وقد شدها الود البادي على وجه المرأة الأكبر سنًّا.

– نعم. ووجهت السيدة «لوبلان» الكلام إلى ابنها مداعبة:

– إنها أكثر سحرًا مما ذكرت لي. ألذلك تحرص على أن تقيم معنا؟! ولم تستطع «جولي» أن تمنع إحساسًا بالخجل غمر وجنتيها. ولم تكن تريد أن تظن المرأة أنها تبدي أي نوع من الاهتمام نحو ابنها. وانطلقت من الأم ضحكة، وابتسمت باعتذار ثم قالت:

– إنه ليس سوى مزاح. إن ابني يعتقد أن له إغراء لا تقاومه النساء. خذي حذرك من نزواته الغرامية وتجاهلي ثلثي كلامه المعسول. وتنفست «جولي» الصعداء وقالت:

– لديك حجرة تؤجرينها؟ وترددت، فقد تذكرت أنها لم تسأل عن الإيجار. وأحست بالحرج فقد كانت تعامل كضيف ومع ذلك كان الرقم معقولاً في حدود طاقتها. لقد وجدت مكانًا للإقامة في مكان طيب ومع أسرة ودودة. وتدخل «جي» متسائلاً:

– قولي لي يا آنسة «سميث»، لماذا اتَّخذتِ «سانت مارتنفيل» مكانًا تمضين فيه إجازتك؟ لماذا لم تختاري «نيوأورليانز» وهي أكثر تألقا؟ وأنبت السيدة «لوبلان» ابنها بقولها:

– «جي» إن لدينا الكثير مما يعجب الزوار؛ فهناك متحف المنزل الأكادي وسوق الحرفيين ومتحف التراث الأكادي في «لوروفيل»، والمناظر الفخمة في «نيوأيبيريا». ثم ما رأيك في جزيرة «آفري»؟ ومدينة الطيور فيها والحدائق البرية؟ ووجهت الكلام إلى «جولي»:

– لا تصغي إليه. هناك الكثير الذي سيعجبك، وإذا أردت أن تزوري «نيوأورليانز» فهي رحلة قصيرة من هنا. وأظهرت «جولي» موافقتها وترددت

www.rewity.com

في التصريح عن غرضها الأساسي. ثم قالت:

– هناك سبب آخر جعلني أحضر إلى هنا. فأحد أسلافي عاش في المستعمرة هنا و سُميت بالفعل باسمه «جولي أنطوانيت سميث» وهي «كاميرون هول». وربما سمعتم بها. وحبست أنفاسها بينما صمت الاثنان برهة قبل أن يجيبا. وهز «جي» كتفيه ثم هز رأسه بالنفي وابتسم ابتسامة طفيفة، ولكن أمه لم تستسلم بالسرعة ذاتها. وسألتها «جولي»:

– هل تعرفين أين موقعها من هنا؟ كل ما أعرفه أنها تبعد ستة عشر أو أربعة وعشرين كيلو مترًا من «سانت مارتنفيل». وعلقت المرأة في صوت ينم عن الحزن:

– ليس هذا كثيرًا. ولكن الزمن لم يكن رحيمًا مع الكثير من المنازل القديمة. حتى أن ما لم يأت عليه النمل الأبيض أو النار أو القدم، سقط أمام الأعاصير أو زحفت إليه يد التقدم. وتنفست «جولي» في عمق، وقالت:

– ألا تظنين أن هناك أملاً في أن أجد تلك المستعمرة؟ وكان مظهرها يوحي بأنها لن تستسلم دون أن تبذل المحاولة. وقال «جي»:

– هناك بعض الأماكن القليلة المهجورة تنتشر في الريف. وبدأت السيدة «لوبلان» تسأل من جديد:

– ما الاسم مرة ثانية؟

– «كاميرون هول». والتفتت إلى ابنها تسأله:

– هل تعتقد أنه قصر «إيتيان» القديم؟ وهزت رأسها ثم قالت:

– لكن لا. كان هذا يحمل اسم المعبد، لقد خلطت بين المستعمرة وبينه، ومع ذلك فإن «إميل» مطّلع على هذه المسائل. سوف نسأله لعله يعرف المكان الذي تبحثين عنه. والآن لتستريحي في بيتنا. هيا يا «جي»، أحضر حقائبها بينما أقوم بإرشادها إلى حجرتها. هل تأذنين بأن أناديك «جولي»؟

وأعطت «جولي» مفاتيح السيارة إلى «جي» وصممت على أن يناديها باسم «جولي». وبدأت تتبع السيدة «لوبلان» عبر الردهة العريضة إلى الدرج المؤدي إلى الطابق العلوي. وهنا لاح لها السر وراء اللهجة الغريبة في أسلوب «لوبلان» في الحديث. كانت اللهجة فرنسية، واستفسرت «جولي» وهي تقبض بيدها على الدرابزين الخشبي:

– هل عشت وأسرتك هنا منذ زمن طويل؟ وأجابت السيدة «لوبلان» بسرعة:

– في «سانت مارتنفيل»، كل حياتنا أنا وزوجي «إميل». لقد اشترينا هذا المنزل بعدما تزوجنا بسنوات قليلة. كان زوجي بارعًا في مهاراته اليدوية. وعلى الرغم من أن المنزل كان في حالة سيئة فقد عمل على إصلاحه حتى صار على الحال التي ترينه فيها. وأومأت «جولي» وقالت:

– إنه جميل للغاية. هل جاءت أسرتكم من «فرنسا» أصلاً؟ واستدارت السيدة «لوبلان» لتجيب عن السؤال المصاغ بأسلوب مهذب في شيء من الثقة:

– إنك لا تعرفين تاريخ «لويزيانا». واحمر وجه «جولي» خجلاً وهي تجيب:

– أعرف فقط ما يعرفه معظم الناس، والقليل مما تحويه كتب التاريخ. وأحست أنه قد فاتها القيام بشيء من الدراسة قبل أن تقوم بالرحلة إلى ذلك المكان.

– إذن فأنت لم تسمعي قصة الشعب الأكادي؟ وهزت «جولي» رأسها وقالت إنها لم تسمع تلك القصة. وواصلت السيدة «لوبلان»:

– لكنك سمعت بقصة «الكاجون»؟ وابتسمت السيدة «لوبلان» عندما أومأت «جولي» بالموافقة. ومضت تقول:

– كان «الأكاديون» مهاجرين من «فرنسا» إلى «كندا» حيث أقاموا في

www.rewity.com

«نوفا سكوتشيا». وعندما طالبت «إنجلترا» بمقاطعة «كندا» كانت تخشى المستعمرة الفرنسية الكبيرة، ولذلك خيَّرتهم بين العودة إلى «فرنسا» والإقامة في المستعمرات الأميركية. واختار أكثر من نصفهم المستعمرات حيث انتشروا فيها، وتشتت شمل كثير من الأسر والمحبين، وظل بعضهم يبحث لسنين قبل أن يجدوا أحبابهم. وبعد ذلك بنحو عشر سنوات هاجر أولئك «الأكاديون» إلى «لويزيانا». وكان أصحاب المستعمرات الكبيرة قد استولوا على الأراضي الخصبة على ضفاف «المسيسبي»، ولذلك استقر «الأكاديون» على طول الرافد. وبعدما اشترت «الولايات المتحدة» مقاطعة «لويزيانا» من «فرنسا» وفد الأمريكيون إلى الأراضي الجديدة وقابلوا تلك الشعوب الأكادية، ولكنهم نطقوا اسم «الأكاديين» بطريقة محرَّفة: «كاجون». وهكذا تبيَّن أن «أكاديين» و «كاجون» هما لفظة واحدة، وترجع سلالة أسرتي إلى أولئك المستعمرين الأكاديين. فنحن أمريكيون من أصل فرنسي كندي. وأنهت السيدة «لوبلان» كلامها وقالت في اعتذار:

– لم أكن أقصد أن ألقي درسًا في التاريخ، ولا أريد أن أصدع رأسك قبل أن تنعمي بشيء من الراحة في حجرتك. تفضلي واتبعيني. وابتسمت «جولي» وقالت:

– أؤكد لك أنني لم يصبني صداع على الإطلاق، بل كانت في ذلك فرصة كبيرة للتعلم. إن ما سمعته منك الآن يقنعني بأنني سأجد كثيرًا من الاستمتاع.

– آمل ذلك. وسارت المرأة أمامها عبر ردهة تتساوى في سعتها بالردهة السفلى. وتابعت:

– يقع الحمام عند نهاية الردهة، أما حجرتك فهي هنا. وفتحت أحد الأبواب وخطت إلى الخلف لتسمح لـ «جولي» بالدخول. وقالت:

– هل تعجبك؟

– إنها فسيحة للغاية. ووجدت «جولي» نفسها في حجرة فسيحة ذات سقف مرتفع ولها نافذتان ضخمتان تمتدان من الأرض إلى السقف، وفي أحد الأركان كان هناك مكتب صغير وكرسي، بالإضافة إلى مقعد وثير له مساند مريحة، ومصباح أرضي وسرير لفرد واحد، بالإضافة إلى تسريحة من خشب «الإسفندان». وكانت هناك بُسط صغيرة ذات لون سماوي فاتح تنتشر على الأرض الخشبية المصقولة اللامعة تبرز ألوان الباستيل التي صنع منها فراش السرير ومساند المقعد. وكان الانطباع العام الذي يوحي به المكان هو السعة والهدوء والراحة. وأخذت السيدة «لوبلان» توضح:

– كانت هذه حجرة ابنتي الكبرى قبل الزواج. إنها فسيحة بما يسمح لك بالحرية الشخصية دون أن تشعري بالضيق. وشعرت «جولي» بارتياح أكبر عندما دلتها السيدة «لوبلان» على الباب المستتر الذي يؤدي إلى المرحاض الخاص بها. وسألتها:

– كم طفلاً رزقت؟

– خمسة. واثنتان من بناتي قد تزوجتا. أما «كلودين» فتعيش معنا بعضًا من السنة، وابنتي الصغرى «ميشيل» تعمل مدرسة هنا. وأخيرًا الولد المدلل «جي». وأطل «جي» برأسه من الباب ضاحكًا وقال:

– الصغير المدلل. هل لي أن أدخل؟ لا أريد أن أقطع الحديث إذا كنت تنوين أن تمتحنيني أمام الآنسة «جولي سميث». وغمزت السيدة بعينيها وهي تقول لـ «جولي»:

– ها هو ذا يعترف بأنه مدلل. وأشارت بيدها الجميلة إلى ابنها كي يدخل وهي تقول:

– ادخل بالحقائب يا «جي»، إنني أعرف أن هناك بعض المهام التي يجب أن تنجزها حتى تجد ضيفتنا الجديدة فرصة لتستريح. ووضع «جي»

www.rewity.com

الحقائب بالقرب من الفراش وقد استقرت عيناه القاتمتان على «جولي» إلى الدرجة التي جعلتها تعتقد أنه كان يريد أن يجعل قلبها يدق له. وحاول أن يلفت النظر إلى كونه سوف ينصرف. وتنهد طويلاً وهو يحييها ويعد بأنه سيتطلع إلى رؤيتها فيما بعد. وعندما ترك الحجرة التفتت السيدة «لوبلان» نحوه وضحكت وهي تقول:

– ابني العاشق.. سأتركك الآن لتفرغي حقائبك وسنتناول وجبة باردة في الحجرة الأولى بعد الظهر. وحجرة الطعام هي الثانية إلى اليمين بعد السلم.

– 3 –

تحدثت «جولي» في لهجة امتزج فيها السؤال والاستفسار فقالت:

– ألا تعمل في أي مكان يا «جي»؟ ورد في سخرية، وهو يدس يدها بحزم تحت ذراعه، وهما يهبطان الممر الجانبي:

– أتكون جريمة كبيرة إذا كنت لا أعمل؟

– إنه سيكون إهدارًا.

– وهل يخيب أملك إذا لم تكن لي مهنة معينة؟

– ولماذا يخيب أملي بسبب ذلك؟

– لأنني أعرف مما ذكرته أنك سليلة أسرة مكافحة، ولذلك فأي رجل يتكاسل يكون في رأيك سيّئ السمعة، وأنا أريد ألا تظني بي سوءًا، وأعترف أنني أعمل محاسبًا على الرغم من أن عملي لا يزال محدودًا. كانت دهشة «جولي» تنعكس على وجهها، ولم يكن بوسعها أن تخفيها، ولم تكن تعتقد أن «جي لوبلان»، برقته ودمائته، يمكن أن يشغل وظيفة في المحاسبة، ولو أخذ برأيها لاختارت له وظيفة في المجال العام.

– إن الشكوك التي ترتسم على وجهك تجرح كبريائي. إنني أعمل لنفسي وليس هناك من يسألني عن عملي سوى نفسي، وأحصل على دخل وفير مقابل وقت قصير أخصصه للعمل. وهناك أوقات أجد فيها نفسي مثقلاً بالعمل، وأوقات أكثر لا يكون لديّ فيها إلا القليل مما يشغلني. وفي الحالة الأخيرة أجد الفرصة لاصطحاب الصغيرات الجميلات عبر المدينة لمشاهدة المعالم المهمة. أليس ذلك رائعًا في نظرك؟ وابتسمت «جولي» ابتسامة ذكية أبرزت خطين شديدي الغور في وجنتيها وهي تقول:

– أعتقد أنك تريد أن تظهر بمظهر الخبث مع أنك لست كذلك تماما.

– إن النساء يحببن الخبثاء الذين لهم سحر الثمرة المحرمة. بالإضافة إلى أن النساء يولدن ليقمن بالإصلاح، ويجدن تلذذًا في أن يصنعن مني رجلاً شريفًا. أما إذا حدت عن الصواب فلا حيلة لي في ذلك؛ لأنها طبيعة فيّ. وعلقت «جولي»:

– والأمان بالتأكيد في أن تكون حولك منهن الكثيرات. وتعمد أن يسير في خطى أبطأ، وقال:

– أعترف لك بأن ظهري قد انحنى من كثرتهن وتستطيعين أن تكوني منقذتي. وأطلقت «جولي» ضحكة نمت عن عدم التصديق. وقالت:

– أنا؟ لماذا؟

– لأنك تستطيعين أن تجعلي الرجل يتطلع إلى التغيير. قال ذلك وقد بدا في نظرته شيء يدل على الجدية على الرغم من الابتسامة الواضحة. وابتسمت «جولي»، وقالت:

– بعد واحد وعشرين عامًا واظبت فيها على النظر إلى المرآة، أعرف تمامًا أن نصيبي من الجمال لا يمكن أن يثير اهتمام أي رجل، فوفر على نفسك الإطراء؛ لأنه لن يجد في نفسي مكانا يا «جي». وتحدث «جي» في إصرار:

www.rewity.com

– إنني أقول الحقيقة. لو أنك كنت في قاعة مع أجمل نساء العالم، سيظل وجهك يلح على ذاكرة أي رجل، وسوف يعاوده خياله الهادئ المثير. وأعترف بأن في تعبيري بعض التناقض ولكن هذا هو السبيل الوحيد لوصف ذلك المزيج من النمش الباهت مع الخطوط التي تظهر في الوجه، ومع العينين البنيتين الرقيقتين. إنك تجعلين أي رجل يستغرق في التفكير عندما ينظر إليك. وأومأت «جولي» برأسها قائلة:

– إنك تتحدث عن فتاة تأخذها إلى بيتك لتقدمها إلى أمك. كانت قد أحست بصدق كلماته ولكنها، شأن كل النساء، كانت تتمنى أن تكون من النوع الذي يخلب ألباب الرجال ويدير رؤوسهم، ويجعلهم يفكرون في أي شيء دون أن يكون للزواج دخل في ذلك. وصحح لها «جي» في هدوء قائلاً:

– بل أقول الفتاة التي يزهو بها كل الزهو وهو يصحبها إلى أمه.

– أعتقد أنك تعاني عدم وجود منافس. كان الحديث قد تركز حول المسائل الشخصية بطريقة لم تكن «جولي» تريدها، وكان من الضروري تغيير الموضوع. وضحكت «جولي» ثم تابعت:

– أين نحن الآن من شجرة البلوط؟

– إنها عند الناصية المقبلة. وسألها:

– هل تعرفين قصيدة «لونغ فيلو» المسماة «إيفانجيلين»؟

– أعرف مغزاها فقط، وأذكر أن «إيفانجيلين» افترقت عن خطيبها «غابريل» وظلت تبحث عنه حتى وجدته على فراش الموت في المستشفى.

– هل سمعت القصة التي وراء القصيدة؟ وعندما نفت استمر «جي» يقول:

– كانت إحدى الأسر الأكادية قد تبنت فتاة يتيمة تدعى «إميلين لابيس» وقامت بتربيتها في منزل الأسرة في «نوفا سكوتشيا». وعندما بلغت الفتاة السادسة عشرة كانت ستتزوج «لويس أرسينو» من القرية ذاتها، وذلك في

الوقت الذي كان يقوم فيه الإنجليز بنقل الأسر الأكادية خارج «كندا». وحاول «لويس» أن يقاوم ترحيله، لكنه أصيب وأخرجه الإنجليز. وهكذا افترق عن «إميلين» التي تم ترحيلها على سفينة أخرى فاستقر بها المقام، والأسرة التي كانت تتبناها، في ولاية «ماريلاند». ولم تكن تعرف مصير «لويس». وبعد بضع سنين سمعوا عن استقرار بعض الأكاديين في «لويزيانا». واصطحبت «إميلين» أسرتها إلى هنا، وعندما نزلت من القارب فوجئت بالرجل الذي عانت بسببه طوال تلك السنين تحت شجرة بلوط ضخمة، ومع ذلك لم تتم سعادتهما؛ لأن «لويس» كان قد ارتبط بامرأة أخرى. وتمضي القصة لتقول: إن «إميلين» ظلت تتحدث عنه حتى وفاتها كما لو كان قد مات أو انتقل إلى أرض بعيدة. وأبطأت خطواته ثم توقف وأضاف:

– ويقال إن هذه هي شجرة البلوط التي وجدت «إميلين» خطيبها عندها ثم فقدته. وراحت «جولي» تحدق إلى شجرة البلوط الممتدة أمامها بضخامتها التي جعلت الحديقة تتضاءل إلى جانبها. وكانت مياه نهر صغير هادئ تتلألأ على البعد. كان المنظر يعبر عن كآبة صامتة في وسط المدينة، وكانت هذه هي شجرة بلوط «إيفانجيلين». وقال «جي» بينما كانت «جولي» تحدق إلى الشجرة بحجمها الكبير وأغصانها الضخمة:

– أعتقد أنه من السخرية أن يكون المبنى الذي يضم متحف المنزل الأكادي هو ذاته الذي عاش فيه «لويس أرسينو» وزوجته الجديدة، ولدينا مبنى تذكاري لكل منهما. وشقت «جولي» طريقها عبر العشب الأخضر إلى المياه البادية لهما، وهي تقول:

– والنهر الذي في الجانب الآخر من الشجرة؟ أليس هو ذاته الذي عبر فيه قارب «إميلين»؟

– دعيني أصحح ما قلته، إن هذا الرافد، بل هو على وجه التحديد رافد

«تيشه». وأدارت «جولي» عينيها المعبرتين عن الحيرة نحو الرجل النحيل بجوارها، وقالت:

– يبدو لي وكأنه نهر صغير. كنت أعتقد دائمًا أن الرافد مستنقع أو على الأقل منطقة مستنقعات. وأخذ «جي» يوضح في هدوء.

– إن أحد الفرنسيين الأوائل أطلق عليه اسم «مياه راكدة» عندما رآه للمرة الأولى؛ لأنه لا يبدو فيه أثر للتيار. والحقيقة أن المياه تنساب فعلاً، لكنها قد تغير اتجاهها في وقت آخر لسبب غير واضح.

– إنه ينساب في استرخاء على الطريقة الفرنسية. وكلمة «تيشه» فرنسية. ولكن ما معناها؟

– ليس بالضبط. إنها تحوير لكلمة هندية تعني «الحية» خففها الفرنسيون لسهولة النطق. وتنهدت «جولي» والتفتت إلى «جي» قائلة:

– أمامي الكثير لأتعلمه.

– حسنًا. والتفتت إليه في سرور ودهشة قائلة:

– لماذا؟

– إذا كان لديك الكثير لتتعلميه فيمكننا أن نقنعك بالإقامة فترة أطول. وهذا سيسعدني كثيرًا. قال ذلك وهو يحاول أن يؤثر فيها بابتسامته، وفاجأته بسؤالها:

– هل سبق لأي فتاة أن صارحتك بأنك تتمادى في الحديث أكثر من اللازم؟

– فقط أولئك اللاتي لم يكنَّ هدفًا لاهتمامي. وبدا وقد جانبه التوفيق في الإجابة هذه المرة. وقهقهت «جولي» قائلة:

– يا له من غرور!

وتوقفت إحدى السيارات قرب حاجز المنتزه الصغير وراحت تطلق نفيرها حتى جذبت اهتمام كل من «جي» و «جولي»، وأخذت الفتاة ذات الشعر

القاتم الجالسة إلى عجلة القيادة تلوح لهما. وقال «جي»:

– الآن، هل تصدقين مدى شعبيتي؟ وكانت كتفاه قد ارتفعتا في زهو وقد استسلم متعجبًا للأقدار، وصاحت الفتاة التي تقود السيارة:

– هل تريد أن أوصلكما إلى البيت؟ والتفت «جي» إلى «جولي» قائلا:

– إنها مسافة طويلة، هل تفضلين الركوب؟ وعلقت «جولي» في لهجة مداعبة:

– لا أريد أن أتسبب في كرمشة ثيابك، كما لا أريد أن أكون مثار حقد من جانب فتاتك. وأجاب بالقدر ذاته من الفكاهة:

– أعتقد أنني أستطيع أن أتعامل مع امرأتين في وقت واحد. ولقد نسيت أن أخبرك بأنني كنت ماهرًا للغاية في الشعوذة.

– حسنًا. سوف نركب معها إلى البيت. إنني أتوق إلى رؤيتك وأنت تمارس غرامياتك. وضحكت، وقبلت أن تستند إلى ذراعه وهو يسير بها إلى السيارة. وبينما كان يساعدها على الصعود إلى المقعد الأمامي علقت الفتاة قائلة:

– لقد أخذتما وقتًا طويلاً قبل أن تحسما رأيكما! ألم تدركا أنه لا يوجد في هذه المنطقة مكان للانتظار؟ وأجاب «جي»:

– كنا نناقش ما إذا كنا نفضل العودة سيرًا على الأقدام. وألقت «جولي» عليه نظرة، بعد التأنيب الذي لقيه من قائدة السيارة، لعلها تفهمه أن وسامته لم يكن لها تأثير كبير في تلك الفتاة.

– في هذا الجو الحار تريد أن تلهو – لماذا؟ إن المشي في الحر قد يوهن صحتكما بشكل ضار. ولفّت الفتاة ذات الشعر القاتم مقود السيادة وسارت وسط الطريق العام، واختلست نظرة قصيرة إلى «جولي» تتفحصها بينما كانت «جولي» تفعل الشيء نفسه، وكانت قائدة السيارة على شيء من الجاذبية، كان شعرها البني أكثر قتامه من شعر «جولي» دون أن يكون له سواد شعر

www.rewity.com

«جي». كان متوسط الطول وفيه خط فارق على الجانب، وكان ينثني إلى أعلى ليسهم في إكتساب وجهها النحيل جمالاً، وكانت تضع نظارة بإطار مذهب أضفى على عينيها القاتمتين ضياءً زاد من جمالها. وابتسمت الفتاة ابتسامة سريعة موجهة إلى «جولي» وهي تقول:

– إذا كان «جي» لا يعنيه أن يقدم كلا منا إلى الأخرى فلنفعل ذلك بأنفسنا. إنني شقيقته «ميشيل».

– اسمي «جولي سميث» وقد استأجرت حجرة من أبويك لأيام قلائل. قالت ذلك وقد ألقت نظرة جانبية على ملامح «جي» المهذبة.

– لقضاء عطلة أم تعتزمين الإقامة؟

– عطلة.

– وأخي العزيز جدًّا كان يصحبك في جولة سياحية. ونظرت «ميشيل» إلى «جي» نظرة لها مغزاها رد عليها بملامح بريئة، وأضافت بابتسامة:

– كيف تنجح دائما في العثور على الجميلات؟

– إنني مغناطيس. وهن يجدنني كذلك. كيف حال التلاميذ الصغار المزعجين اليوم؟ ورفعت «ميشيل» عينيها تجاه السماء، وهي تقول:

– لا تسأل! وظهرت على وجهها نظرة ساحرة حزينة وهي تلتفت إلى «جولي» لتقول:

– أعمل هنا في التعليم. هل تصدقين أن أحدهم قد أخرج الحرباء من الصندوق الزجاجي وصارت تتسلق السرير الخاص بإحدى التلميذات! ولقد سمعت من الصراخ اليوم ما سوف يظل يتردد صداه في أذني سنوات. وأظن أن الحرباء الصغيرة قد أحست بالسعادة عندما أعيدت إلى عالمها الزجاجي. وقال «جي» لـ «جولي»:

– لا تصدقي هذه الشكوى، فإنها تحب عملها بالقدر الذي يغرم به الأولاد

بالبنات. وهزت «جولي» رأسها في أسف، وقالت:

– إن عقلك يتجه دائمًا إلى موضوع واحد. وعلقت «ميشيل» موافقة بقولها:

– هل لاحظت أنت أيضًا ذلك؟

– لقد جعلني أعتقد أنك واحدة من العديدات المتيمات به. واعترض «جي» قائلاً:

– حسنًا. أرجو أن تكفا – أنتما الاثنتين – عن مهاجمة رجل مسكين أعزل. كيف تحتفظ «جولي» بتقديرها لي إذا ما عاملتني بهذه الطريقة الساخرة؟ وهمست «ميشيل» قائلة:

– طبيعة الرجل الهشة! وضحكت «جولي» لذلك، وصاح «جي» متصنعًا الغضب:

– ألم تعلمك أمنا أن الهمس أمر غير لائق؟ أرجو يا «جولي» أن تتجاهلي ما قالته لك. وضحكت شقيقته، وقالت:

– لابد من أن تجد من يحذرها ضد سلوك شبابنا في «الولايات الجنوبية». ووصلوا إلى بيت «لوبلان» وعندما أوشك «جي» أن يستأنف شجاره مع شقيقته ظهرت الأم عند قوس الباب الخلفي لترحب بهم. كانت تجربة غير عادية بالنسبة إلى «جولي»، وأحست بأنها تألف تمامًا أولئك الناس الذين لم يسبق لها أن تعرفت إليهم قبل اليوم. فتحوا قلوبهم وأذرعتهم بالصداقة. وأخذ «جي» يسأل:

– حسنًا. ما رأيك في شقيقتي؟ وكانت «ميشيل» قد استجابت لأمها التي طلبت منها أن تحمل أوراقها إلى داخل البيت، وأجابت «جولي» بابتسامة:

– إنها رائعة.

– هل تصدقين أنها مولعة بمدرس التاريخ القديم وأن «سقراط» و «يوريبيدس» هما المنافسان لها؟! ومثل قبضة موجهة إليه على سبيل المزاح قبل أن يضع

www.rewity.com

حدًا للمناقشة بينه وبين شقيقته. عندما دخلت الأم حجرة المعيشة. كانت تحمل صينية عليها إبريق ملي، بعصير الليمون وبعض الأكواب. ولم يكن الأمر يحتاج إلى إقناع أي منهم بالمشاركة في الشراب المنعش. وقالت السيدة «لوبلان»:

– لقد تلقيت خطابًا من «كلودين» اليوم، وسوف تعود إلينا مع نهاية الأسبوع.

وبدا أن «جي» لم يسعد بالخبر، وقد ظهر ذلك على ملامحه أكثر مما بدا على كلماته، وهو يقول:

– وهل تطول إقامتها هنا؟ وأجابت الأم:

– أعتقد أنها ستقيم معنا حتى نهاية موسم الإجازات. وبدأ الصمت يسود المكان. وعلقت «جولي» قائلة:

– لابد أنها تعمل في مكان ممتاز يسمح لها بأن تستمتع بكل هذا الوقت.

وبدأت السيدة «لوبلان» توضح، فقالت:

– ابنتي فنانة وتعرض لوحاتها في «نيوأورليانز» في خلال الإجازات في فصلي الصيف والشتاء. أما باقي السنة فإنها تمضيه هنا ترسم لوحات (الكنفا) الجديدة ليكون لديها باستمرار رصيد كاف.. ونظرت «جولي» إلى كل من «ميشيل» و «جي» تتوقع منهما أن يشعرا بالزهو الذي تشعر به أمها، وقالت:

– لابد أنها ناجحة إلى حد ما. وأومأت الأم بسرعة، وقالت:

– نعم، إنها كذلك. وأكاد أقول إن اللوحات التي تزيّنها هنا من «كلودين». وتذكرت «جولي» على الفور اللوحتين اللتين تزينان جدران حجرتها. كانتا تمثلان باقات من زهور الربيع بينهما توافق وانسجام. ومع ذلك تختلف كل لوحة عن الأخرى في محتوياتها. وقد رسمت الزهور على أرضية لونها أزرق رمادي، ونسقت الزهور في آنيتين صينيتين متماثلتين في الشكل يشيع فيهما

اللون الأزرق الفاتح. وقدرت «جولي» أنه إذا كانت «كلودين» هي التي رسمت تلك اللوحات فلابد من أنها فنانة ناجحة للغاية. وعندما سألت السيدة «لوبلان» عمن رسم تلك اللوحتين أكدت أنها «كلودين». وكانت الأم على استعداد للاستمرار في تمجيد إنتاج «كلودين» لولا دخول زوجها. كان «إميل لوبلان» ضئيل البنية ويبدو كشاب نحيل القوام، وكان شعره فيما مضى قاتمًا كشعر «جي» ولكن الشعر الأبيض والرمادي بدأ يزحف على جانبي رأسه وعلى مؤخرة رقبته. وبعدما حيّا أسرته وطبع قبلة محبة على وجنة زوجته استدار نحو «جولي» مبتسمًا ومستفسرًا:

– من الآنسة الجميلة التي تشرف حجرتنا يا «جوزفين»؟ وبدأت السيدة «لوبلان» على الفور تشرح ظروف إقامة «جولي» وهي تقدمها إليه. وكان ترحيب السيد «لوبلان» بها كريمًا كباقي أعضاء الأسرة، بل كان فيه نوع من المداعبة الودودة كترحيب «جي» بها وقال:

– «جولي أنطوانيت». هذان اسمان فرنسيان ربطا باسم آخر شائع الاستعمال مثل «سميث». وبدأت «جولي» تشرح من جديد أسباب قدومها إلى «سانت مارتنفيل» في محاولة لتعرف مكان المستعمرة التي عاش فيها أجدادها، إلى جانب رغبتها في القيام بسياحة في المعالم المحلية. وكانت إجابة «إميل لوبلان» هي الإجابة غير المحددة كما فعلت زوجته وابنه من قبل عندما ذكرت «جولي» «كاميرون هول» وإن كان قد أبدى حماسه للمشاهد المتوفرة في المنطقة. وقال:

– يجب هنا أن نضع لك خطة لسياحة المنطقة حتى لا يفوتك شيء في خلال إقامتك هنا. ونظر إلى ابنه وابنته ليتحملا هذه المسؤولية. وأضافت السيدة «لوبلان» بحزم:

– لا يزال هناك وقت لذلك فيما بعد يا «إميل»، وأعتقد أن «جولي» تفضل

www.rewity.com

أن تكمل شرابها، وتأخذ حمامًا قبل العشاء. فهي لم ترتح بعد من رحلتها الطويلة، ولم تتعود الرطوبة العالية عندنا، ولا ينبغي لنا أن نفرض عليها خططنا بأي حال. وأومأ الأب يقول:

– حقًا. حقًا. والتفت إلى «جولي» معتذرًا، لكنها أكدت له:

– إنني غريبة تمامًا عن هذه المنطقة يا سيد «لوبلان». وأكون شاكرة حقًا لو تفضلت بأي اقتراح.

– مع ذلك، فإن زوجتي على صواب فهذه المناقشات ينبغي أن تؤجل إلى ما بعد العشاء. والتفت ذراعه حول زوجته، وقال:

– ماذا ستقدمين لنا الليلة؟ هل فكرت في طبق خاص لضيفتنا الجديدة؟

– ليس الليلة. دعها تتعود مناخنا أولاً، ثم مطبخنا. وحاولت «جولي» أن تعبر عن الإحساس الذي تملكها وهو الشعور بالذنب، لأنها أقلقت حياتهم، ولكن اعتذارها لم يكن له مكان، فقد أكدت لها السيدة «لوبلان» أنها لم تسبب لهم أدنى قلق. ولم تملك «جولي» إلا أن تستسلم، فقد كانت هي الأخرى تستمتع بدفء كبير في محيط تلك الأسرة.

– 4 –

كان الصباح قد استسلم لشمس الضحى في اليوم التالي قبل أن تطمئن السيدة «لوبلان» إلى أن «جولي» قد زُودت بما يلزمها من الطعام والشراب والكتيبات والتعليمات التي تمكنها من السياحة يومًا كاملاً. وجلست «جولي» في أمان خلف عجلة قيادة سيارتها وأخرجتها من الممر.

لم تكن «جولي» تعرف وجهتها على الرغم من الأماكن العديدة التي رشحت لها. وكان الجو ينبئ بطقس يميل إلى الحرارة. لذلك فضلت ألا تتجه

لزيارة المتاحف. واختارت أن تسلك الطريق الجانبي الذي يحيط بـ «سانت مارتنفيل»، وتستكشف الطبيعة من منظور آخر غير القيادة على الطرق العامة. وكانت تعتزم التوقف فيما بعد، عندما يحل جو المساء اللطيف، أمام المنتزه العام الذي يحمل اسم «لونغفيلو».

وسلكت طريقًا يتجه من المدينة شرقًا وتركت وراءها «سانت مارتنفيل». كان الطريق خاليًا، وتركت سيارتها تسير بالسرعة التي أرادتها تبطئ عندما يشد عينيها منظر يثير الاهتمام، وتسرع لتجعل الرياح المتولدة عن حركة السيارة تداعب وجهها.

– كانت مزارع قصب السكر تنتشر في المكان وبعض سيقانه تعلو فتظلل السيارة بينما بعضها الآخر لا يكاد يصل إلى النافذة. وانتشرت على جانبي الطريق منازل لم تكن تختلف في مظهرها عن أمثالها في مسقط رأسها. مع ذلك كانت من وقت إلى آخر تلمح بيوتًا تتكون من طابقين وقد تراجعت إلى الداخل بعيدًا عن الطريق، تاركة أمامها مرجًا أخضر يشقه طريق يؤدي إلى البيت، تحدده صفوف من أشجار البلوط. وكانت تخفف السرعة في محاولة للعثور على أية إشارة تدلها على «كاميرون هول»، ولكنها كانت تصاب دائما بشيء من الإحباط.

واستسلمت لرغبة استولت عليها تدفعها إلى القيام بشيء من المخاطرة. وتركت الطريق المرصوف إلى آخر تغلب عليه الأصداف البحرية. وزادت كثافة مزارع القصب على جانبي السيارة حتى أحست بأن جذوعه البارزة تكاد تبتلعها. وبدت بعض أغصان الأشجار من بعد تمثل مرفأ الأمان بعد مزارع القصب الممتدة.

وتوارت سيقان القصب لتفسح مكانها لأشجار البلوط ترتفع في كآبة من مستقرها المائي تغطي أغصانها الطحالب الإسبانية. وبدت الزنابق المائية

www.rewity.com مـــرمـــورت

الجميلة تتصارع مع الطحالب لتبرز على سطح أوراقها الخضراء التي تستسلم للجزر الصغيرة من أعشاب المستنقعات والأوراق ذات الرؤوس الناتئة من أشجار النخيل القصيرة بسعفها المروحي الشكل.

- وأبطأت سرعة السيارة لتلقي «جولي» نظرة على الحياة البرية في المستنقع. وسمعت بعض الطيور تصفق بأجنحتها، ولكنها لم تر أثرًا للحياة. وخاب أملها، فقد كانت تحلم برؤية تمساح بري، وأقنعت نفسها بأن ذلك كان مستنقعًا صغيرًا، بل مجرد مصفاة لا يمكن أن تأوي تمساحا نظرًا لقربها من مناطق السكن.

وعلى بعد أمتار أخرى كان المستنقع قد تحول إلى أرض للرعي، وبدت قطعان الحيوانات ترعى العشب الكثيف في منظر لم تألفه «جولي». وكانت تظن أن تلك الماشية تكثر في المناطق البرية من «الولايات المتحدة»، لا في ولاية «لويزيانا».

واستدار الطريق في منعطف سهل حول المراعي، ووجدت «جولي» أن على الجانب الآخر من الطريق خطًا متعرجًا من الماء سرعان ما اكتشفت أنه رافد. كانت أشعة الشمس تسطع فوق سطحه بشكل جعله يعكس صفاء منظر هادئ. وكانت هناك رافعة تجرف من الشاطئ المقابل حيث كانت أغصان شجرة البلوط تتدلى فوق الماء.

وخطر لـ «جولي» أنه مكان رومانسي تسعد فيه بتناول طعام الرحلة الذي أعدته السيدة «لوبلان». وكان هناك مدخل لبوابة على الجانب الآخر من الطريق يدعوها إلى أن تستفيد منه كموقف للسيارة حتى لا تعوق المرور، فأحسنت الاستفادة منه. وعبرت الطريق تحمل على إحدى ذراعيها سلة الطعام والمفرش الصغير، وتحمل على الذراع الأخرى الترمس، وحقيبة يدها. وقفزت عبر حفرة مليئة بالماء كانت تفصل الطريق عن الرافد دون أن تزل

قدماها أو يسقط شيء من يديها. كانت وطأة حرارة الجو تنتشر عبر المكان، وأي حركة تبدو بطيئة واهنة تشبه قوائم الرافعة التي كانت ترتفع وتنخفض في بطء شديد. أما أصوات الطيور فقد أخرست، وحتى صوت الماء الخافت وهو يعانق ضفة الرافد لم يكن مسموعًا.

وتجمعت حبات العرق على جبهتها لتبلل أطراف شعرها الهشة وتزحف إلى شفتها العليا حتى تسربت الملوحة إلى فمها. وانحنت على العشب القصير وفرشت المفرش الصغير وأخذت ترتب الأشياء إلى جانبها. كانت السيدة «لوبلان» قد وضعت في سلة الرحلة فوطة في كيس من البلاستيك استخدمتها «جولي» في إزالة آثار العرق عن وجهها، وأحست بالانتعاش عندما بدأت الرطوبة الجديدة تتبخر عن بشرتها.

وأحست بفتحة قميصها القصير المبطن بشريط من الأستيك تضايقها فجذبت الكمين القصيرين إلى أسفل حتى بدا خط الرقبة مستقيمًا من الكتف إلى الكتف. وخفضت رأسها إلى الوراء وعصرت الفوطة فتدحرجت قطرات من الماء فوق كتفيها تسلل بعضها إلى صدرها. وأخذت عيناها تتفحصان المكان المحيط بها. وعلى بعد أمتار قليلة كانت هناك شجرة بلوط صغيرة تركزت عيناها في أغصانها العليا وانتقلتا إلى الجذع ثم إلى أسفل الشجرة. وتوقفت يدها فجأة عن الاستمرار في عملية الترطيب التي كانت تقوم بها، فقد وقعت عيناها على رجل كان يسترخي هناك. وسرت الدماء في وجنتيها من وقع المفاجأة، فقد كانت عيناه تتفحصانها في جرأة.

وأسرعت يدها تعيد كمي القميص إلى وضعهما السابق. وأدرك الرجل أنها لاحظت وجوده فنهض على قدميه وخرج من ظل الشجرة ووقف على بعد خطوات منها، ولم تملك إلا أن تتراجع إلى الوراء. وتحدث في إغراء قائلاً:

- إنه ليؤسفني أن تحجبي هاتين الكتفين الجميلتين. وتسارعت دقات

قلبها، وامتدت يداها لتجمعا حاجاتها، وتلعثمت قائلة:

– إنني.. إنني آسفة.. لم أكن أعرف أن أحدًا هنا.. سوف.. سوف أجد.. م... مكانًا آخر.

– لا حاجة بك إلى ذلك، فأنا أرحب بأن تشاركيني الاستمتاع بمنظر ذلك الرافد. كان شيء ما في صوته المهذب يجبرها على أن ترفع بصرها نحوه، ووجدت نفسها تحدق إلى عينين لم يسبق لها في حياتها أن رأت مثلهما في القتامة، وكانتا تلمعان في استثارة من وراء ظلال رموش قاتمة مجعدة، وكان حاجباه وشعره بلون أسود أشبه بجناح غراب لامع وقد صبغت الشمس بشرته بلون بني يشبه خشب الساج. ولم يبد في ساقيه البارزتين من سرواله القصير أي اختلاف عن لون ذراعيه. كان طويل القامة وجسمه ممشوقًا يعكس انطباعًا عن قوة في ذراعيه دون بروز في العضلات، بينما كانت كتفاه وسيمتين عريضتين. ولم يكن هناك أثر للترهل في مظهره وكانت فخذاه مستقيمتين. وعندما ابتسم كشف ثغره عن أسنان بيضاء كاللؤلؤ. ولاحظت «جولي» الخطوط الغائرة التي برزت على جانبي فمه. وقال:

– أعد بأنني لن أضايقك. واحمرت وجنتاها وقالت وهي تعرف أنها تكذب:

– لم يخطر لي أنك تضايقني.

– كان ينبغي أن يخطر لك، فقد أحسست فعلاً برغبة في ذلك. وضاقت عيناه بخبث وهما تتفحصانها وهي في وضع الركوع. كانت «جولي» تتمنى أن تستنشق نفسًا عميقًا، ولكنها كانت تخشى أن يبدو عليها القلق الذي كان يساورها. وحاولت أن تستجمع ثقتها بنفسها ووجدت الشجاعة من جديد، فقالت:

– لا أريد أن أقطع عليك خلوتك.

– على العكس. قال الرجل ذلك، ومشى عائدًا إلى مكانه أسفل الشجرة في وضع الاسترخاء الذي كان عليه. واستمر يقول:

– إن جلوسك لتناول الطعام لن يؤثر في جلوسي لصيد السمك، ويمكنك أن تبقيْ في المكان ذاته. وامتد بصرها إلى الصنارة والخيط المستندين إلى عصا قرب حافة الشاطئ، ووجدت نفسها تقول في صراحتها المعتادة:

– ولكن هذا الوقت من النهار ليس مناسبًا للصيد، فالجو حار. وعلق قائلا:

– يبدو أن لك خبرة في الصيد. وأجابت «جولي» وهي تبطئ من عزمها على الرحيل السريع:

– بعض الخبرة. وابتسم في مواجهتها من جديد وقال:

– إن لي نظرية حول الصيد في هذا الوقت من النهار. أتحبين أن تعرفيها؟ وقعدت على المفرش الصغير وقالت:

– وما هي؟

– أعتقد أن الأسماك الكبيرة الذكية تعرف أن الصيادين لا يخرجون إلى الصيد إلا في أوقات خاصة تتجنبها هذه الأسماك. أما في مثل هذا الوقت الحار فإنها تبحث عن الطعام في مأمن من شباكهم.

– وهل تحققت نظريتك؟

– كلا. ومع ذلك فهي فرصة لتدريب الديدان التي أستخدمها كطعم. وقهقهت ساخرة، ولكن سرعان ما سكتت عندما انحنت قصبة الصيد انحناءة مضاعفة. ووقفت «جولي» ترقبه وهو يشد القصبة وقد استولى عليها شك حبس أنفاسها. وشد الخيط بقوة وجعله يستقر على الشاطئ. وأحسّ بشيء في نهاية الخيط فاتجه إليه وانحنى ليلتقطه بينما زحفت لتلقي نظرة عن كثب. وصاحت:

– يا لها من سمكة كبيرة!

– إننا نسميها جرادة البحر. وأخذ يقلم زعانفها ثم وضعها في دلو صغير.

www.rewity.com

– أهذه جرادة البحر؟! قالت «جولي» ذلك وهي تحدق إلى السمكة، وكانت الدهشة تبدو في صوتها لحجم السمكة الكبيرة الشهيرة بـ «جراد البحر». وسألها:

– هل سمعت قصة «الكاجون» وهجرتهم من «كندا» إلى هنا؟ ونظرت إليه في دهشة وهي تعجب من صلة ذلك بسمكة «جراد البحر» وقالت:

– نعم.

– وهل سمعت بأسطورة «جراد البحر»؟ وأجابت «جولي»:

– لا.

– عندما اضطر «الأكاديون» أو «الكاجون» إلى ترك «كندا» كان صديقهم المخلص «جراد البحر» يعيش في المياه المتجمدة حول «نوفا سكوتشيا»، وكره أن يراهم يهاجرون، ولم يكن له مكان على ظهر السفن التي حملتهم بعيدًا. وكان عليه أن يسير في أثرهم، واستمر يسبح المسافة كلها هابطًا بمحاذاة ساحل «الأطلنطي» إلى خليج «مكسيكو» حتى وصل أخيرًا إلى رافد «لويزيانا» حيث أقام «الأكاديون» وطنهم الجديد. وكان للرحلة أثرها، فقد أنقص التعب «جراد البحر» إلى ربع حجمها السابق.. وهنا كانت عيناه الزرقاوان القاتمتان تنظران إليها وقد تقوس أحد حاجبيه وكأنه يريد أن يتحقق مما إذا كانت تصدق أم لا. وأضاف:

– هكذا تحكي أسطورة «جراد البحر».

– حسنًا. سواء أكانت هذه الأسطورة حقيقة أم هراء عاطفيًا، فإنني أحبها. وتنهدت وقد بدا في صوتها شيء من الرضا. وعاد يسألها من جديد وقد بدا الخبث في عينيه:

– هل نجحت القصة التي نحكيها لأطفالنا في أن تزيل قلقك بالحد الذي يقنعك أن تواصلي قضاء نزهتك الانفرادية هنا؟

– نعم. وبدا في صوتها شيء من الاضطراب عندما أسرت عيناه عينيها، ولكن «جولي» استطاعت أن تتحرر من تحديق عينيه وقالت:

– إن لديَّ من الطعام الشيء الكثير. هل تحب أن تشاركني؟ وعلق قائلاً:

– كنت أظن أنك لن تفكري أبدًا في أن توجهي إليَّ هذه الدعوة.

– لم أكن أريد أن أشتت انتباهك وأنت تحاول أن تثبت صحة نظريتك، وكنت أكره أن أكون سببًا في ضياع السمكة الكبيرة منك. قالت ذلك مقهقهة، وهي تعود إلى حيث كانت تستقر سلة طعامها. وتابعت:

– بالتأكيد، لو أن السمك الكبير على ذلك القدر من الذكاء كما تظن، فمن المحتمل أنه سمع نظريتك وبدأ يحتاط ضد حيلتك. كانت قد أحبت صوته المرح في أثناء الضحك وهو ينضم إليها في تناول الطعام، ومع ذلك كانت هناك أشياء عديدة حول ذلك الشخص الغريب الذي أعجبها إلى جانب نظراته الوسيمة المؤثرة. وعلى الرغم من ذلك، فإن أسلوبه الذي ينم عن الثقة الزائدة بالنفس والذي بدا في قدرته على إعادة الطمأنينة إلى نفسها، جعل «جولي» تعتقد أنها أمام شخص يتفوق عليها في الخبرة. ولم يكن بوسعها أن تسمح لسحره الاحتيالي أن يتسرب إلى عقلها، ومع ذلك لم تستطع إلا أن تستجيب بابتسامة مماثلة عندما جلس على المفرش الصغير إلى جانبها، ووضعت رقائق البطاطس بينهما قبل أن تمد يدها لتخرج بقية الطعام. كانت هناك شريحتان من اللحم البقري المشوي قدمت إليه إحداهما واحتفظت لنفسها بالأخرى، وقالت:

– يمكنك أن تختار من التفاح أو البرتقال، أو من كليهما. ويوجد من كل زوجين اثنان هنا.

– هذا كثير. شكرًا!! وسادهما صمت وهما يتناولان الطعام منحهما الفرصة للاستمتاع بمذاقه الشهي. ووجدت «جولي» نفسها تضطر إلى الاعتراف بأنها

تستمتع بالوجبة. وأحست لأول مرة بحريتها في أن تكون على سجيتها وألا تقيم وزنًا لشاعر أي شخص آخر مثل والديها أو «جون». ومدت يدها إلى الترمس تتناول كوبًا من عصير الليمون. وأدرك أنه لا يوجد غير كوب واحد، وملأت الكوب وقدمته إليه، كما اقتسما الطعام. وعندما أعاد الكوب إليها بعدما شرب نصيبه، سألته «جولي»:

– هل أنت أكادي؟

– أنا أومن بفلسفتهم فقط.

– ما هي فلسفتهم؟

– الأفضل أن تعيش حياتك لا أن تكتفي بأنك كائن حي فحسب. والأفضل أن تغني لا أن تسب وتلعن. والأفضل أن تعيش للحب لا للحرب. وفي بساطة أكثر فإن الأكادي يحب القهوة الثقيلة والضحك والحديث والغناء والرقص والأطعمة الدسمة، وأكثر من ذلك كله يحب النساء.

– ولكنك لم تحدثني عن النساء الأكاديات، هل يحببن هذه الأشياء أيضا؟

– إنهن يضفن إلى القائمة الأطفال والثرثرة وأزواجهن. واعترضت قائلة:

– إن ذلك ليس عدلاً. لقد قلت إن الرجال الأكاديين يحبون النساء، والآن تقول إن النساء الأكاديات يقتصرن على حب أزواجهن.

– عليك أن تأخذي في اعتبارك أن الأكاديين لديهم اهتمامات ترجع إلى أصلهم الفرنسي تجعلهم يقدرون جمال كل امرأة بصرف النظر عما إذا كانوا متزوجين أم لا. كان بإمكان «جولي» أن تستنتج أنه يتعمد أن يبدو كما لو كان مثيرًا للغضب ومع ذلك أحست بأن كلامه مثير ولو بدرجة طفيفة. وقالت في لهجة تنم عن الاحتقار:

– هه. ليظهروا بمظهر العاشقين العظام؟ وأخذ البرتقالة التي كانت بيدها وراح ينزع قشرتها قائلاً:

– إن الرجال الفرنسيين يعرفون أن النساء يزددن زهوًا بالمديح والإطراء، وقد يقول الرجل إن شعرك كثيف لامع وهو يحلم بأصابعه تمتد بين تجاعيده الناعمة، وإن النمش على بشرتك يجعلك تبدين في شباب دائم وتتذكرين أيام الصيف المشمسة! وتلكما العينان الناعمتان تذكرانه بأنثى الظبي التي تخشى أن تدخل مرجا غريبًا. كانت عيناه الزرقاوان تنعمان النظر في كل ملمح من الملامح التي يذكرها. وتابع:

– وشفتاك المقوستان في استدارة جميلة رقيقة تعدان بعذوبة ما بعدها عذوبة. كانت عيناه تحدقان إليها بشكل آسر لا يسمح لها بأن تتحول عنه. كانت البرتقالة التي أتم نزع قشر بين يديه فقطع منها شريحة وضعها بين شفتيها، فانفتح فمها يتقبلها بطريقة آلية وقد أحست بأنها قد أكلت الثمرة المحرمة. وأطلقت من حيث لا تدري ضحكة للتموية حاولت معها أن تتخلص من عينيه المحدقتين. وشعرت بالرغبة في البكاء.

– من حسن حظي أن ذلك الشاب الفرنسي ليس موجودًا هنا؛ إذ كنت سأشعر بالذنب لو أنني رفضت الإطراء الذي يقدمه لي من باب المجاملة.

– وهل بدا لك ذلك مجاملة؟

– دعني أقول لك إن عبارته المنمقة كان فيها شيء من المبالغة الشاعرية. ولكن الإطراء من أجل الإغراء غالبًا ما يكون كذلك. وابتسم قائلاً:

– إنك تتعمدين التقليل من قدر جمالك.

– أوه! إنني لا أتواضع إلى الحد الذي عنده أتجاهل أن لي جمالاً على طريقتي الخاصة. ولكنني لست «هيلين» الجميلة فتاة «طروادة».

– إن ما يريده الرجل من المرأة هو الحب وليس الحرب. قد يذبل سحر المرأة إذا كان على الرجل أن يصارع منافسيه باستمرار ليثبت حبه.

– هل هذا إطراء معكوس تقلل من شأن الجمال وترفع من شأن البساطة؟

www.rewity.com

– لا، كنت أقول فقط إن الجمال الباطني أكثر سحرًا من الجمال الظاهري

كانت «جولي» قد نهضت على قدميها، وبدأت تحمل اللفائف المختلفة على ذراعيها. وكان الرجل يمتدحها، لكنه لم ينجح إلا في أن يجعلها تحس بمزيد من الضيق لنقص جمالها. كانت من قبل على ثقة كبيرة دائمًا، وقادرة على أن تحتفظ بثباتها أمام أي رجل. أما هذا الرجل فكانت له جاذبية خاصة ومؤثرة إلى درجة كبيرة. كان يبدو وسيمًا حتى خشيت أن تتورط في أي مداعبة معه. ورأت أنه من الأفضل أن تهرب قبل أن تتورط في شيء تخشى عقباه.

– أرجو ألا تظن أنني أقتسم طعامي ثم أهرب، ولكن من الأفضل أن أعود الآن. وابتسمت دون أن تسمح للمرارة في فمها أن تؤثر في كلمات الوداع.

– ولكن وقت ما بعد الظهيرة لا يزال ممتدًا. كان هو الآخر قد نهض على قدميه، وبدأ يختلس النظر إليها بطريقة تستحثها على البقاء.

– لكن إجازتي قصيرة. قالت ذلك والأسف بادٍ في التنهيدة التي أطلقتها. ومد يده ليأخذ سلة الطعام من يدها فشعرت بأسف عندما كف عن الإلحاح عليها في البقاء، بينما كان قد وقف ينتظر منها أن تسلك الطريق إلى سيارتها. وعندما تم وضع كل شيء على مقعد السيارة الخلفي التفتت «جولي» قائلة:

– وداعًا. وامتد إصبعه إلى وجنتها وقال:

– عليك أن تطلي سيارتك بطريقة تنسجم مع النمش الذي على وجهك. عندئذ يكون كلاكما أنثى طائر جميل تستعد للعودة إلى مأواها.

– سيكون ذلك بدعة! قالت ذلك وهي لا تجرؤ على النظر إلى عينيه. وجلست خلف عجلة القيادة، وقالت:

– شكرًا على قبولك مشاركتي إياك مكانك المختار للصيد.

– شكرًا على وجبة الظهيرة.

– حسنًا. إلى اللقاء. قالتها بالإنجليزية، وبدت الكلمات مبهجة حتى على أذني «جولي».

– لا تقوليها بالإنجليزية، ولكن بالفرنسية.. حتى نلتقي ثانية! كانت «جولي» قد أدارت محرك السيارة وانطلقت بها. وخطر لها أن الفرصة للقاء ثان أمر بعيد الاحتمال، إذ كيف يتسنى لهما أن يتقابلا من جديد؟ لم يكن يعرف اسمها أو مكان سكنها، كما هي لم تكن تعرف شيئًا عنه. وكان ذلك الخاطر محزنًا في حد ذاته.

– 5 –

كان «جي» ووالده يحضران اجتماعًا يعقده أحد الأندية المحلية، وكانت السيدة «لوبلان» تزور قريبة لها كبيرة في السن. وجلست «ميشيل» على الأريكة المغطاة بغراش ذي نقوش مربعة، وحولها بعض الكراسات تقوم بتصحيحها بينما آلة التسجيل تملأ الحجرة بموسيقى مرحة. وجلست «جولي» تكمل رسالة كانت تكتبها إلى خالتها «بريجيت»، ولم تكن تستطيع أن تجعلها مبهجة مثل الرسائل السابقة. كان شبح الوجه القوي، بشعره الأسود القاتم وعينيه الزرقاوين، يطل عليها باستمرار، وكانت تحس بالإحباط، لأنها لن تراه ثانية. لقد سبق لها أن احتكت برجال على هذا القدر من الجاذبية، وكانت تعجب بنظراتهم حقًا. ولم تكن تحس بالكآبة لافتقادهم، ولكن الأمر كان مختلفًا مع هذا الرجل. لقد اعترفت «جولي» لنفسها صراحة أنه سحرها بما يعرفه عن «لويزيانا»، وبما يتمتع به من مرح وفكاهة، ولأنه لا يحس بزهو أو خيلاء، كان واثقا بنفسه ولم يكن متغطرسًا يغيظ الآخرين أو يسخر منهم. كان يعرف الكثير ولا يتباهى بما يعرف. وحاولت أن تكف عن التفكير

www.rewity.com

فيه فلم تعد بعد طفلة ولم تكن من النوع الذي يستسلم للأحلام. وأطلقت تنهيدة عميقة سمعتها «ميشيل» فرفعت عينيها من وراء النظارة ذات الإطار المذهب، وسألتها:

– هل تكتبين إلى فتاك؟

– لو بقيت في ذرة من العقل لكتبت إليه، ولكنني أكتب إلى خالتي.

– إجابتك توحي لي بشيئين: إن لك فتى وإنك على خلاف معه.

– أنت على صواب في كلا الاستنتاجين.

– هل تفتقدينه؟

– لا. ولكن ضميري يؤنبني بين الحين والحين. قالت «جولي» ذلك في ابتسامة حزينة.

– كان يحبك وأنت لا تحبينه، وهذا يجعلك تشعرين بالقلق. قالت «ميشيل» ذلك وهي ترتب أوراقًا في حجرها ما لبثت أن رتبتها في كومة منظمة ثم وضعتها مع باقي الكراسات على جانب من الأريكة.

– إن لدى «جون» كل ما تحلم به الفتاة في أي شاب، فهو لطيف ومحب ووسيم. كنت أهتم به كثيرًا، ولكنني لم أشعر بالسعادة عندما كان يعانقني.

وضحكت «جولي» من نفسها وتابعت:

– إنني لم أعثر بعد على فتى أحلامي.

– طموح زائد! قالتها «ميشيل» وهي تومئ برأسها.

– ماذا؟

– طموح زائد! شيء كثير. كانت الكلمتان تعبران عن حقيقة مشاعرها تمامًا، ومع ذلك لم تكونا تقدمان لـ «جولي» تفسيرًا محددًا لما تبحث عنه. وبدا أن أنسب شيء أن تعمل بنصيحة خالتها فلا تشغل نفسها بالمشكلة، وتترك للوقت حل كل شيء. وقالت «جولي»:

– لقد فكرت في الذهاب إلى «أوبيلوساوس» غدًا لأزور متحف «جيم باوي»

ثم أزور مدينة «لافاييت». وتطرق الحديث إلى الذهاب إلى ما يعجب السائح في كلتا المدينتين. وعندما استقرت «جولي» في فراشها تلك الليلة عز عليها النوم وحاولت أن تشغل نفسها بالتفكير في برنامج اليوم التالي، ولكن عقلها كان مشغولاً بشبح ذلك الرجل الغريب. ونامت نومًا متقطعًا وهي تتقلب في فراشها. وخرجت «جولي» إلى «أوبيلوساوس» و «لافاييت» لتستنفد طاقتها الجسمية والعقلية، ونجحت في ذلك إلى الحد الذي عنده لم تستطع أن تتذكر ما إذا كان المنزل على هيئة السفينة الغريبة القوطية، في «أوبيلوساوس» أم في «لافاييت» بينما كان في قرية أصغر حجمًا تُسمى «واشنطن».

* * * * *

وفي الصباح التالي انتزعت نفسها من الفراش انتزاعًا، فقد نامت نومًا عميقًا واستيقظت كما لو كانت تحت وطأة عقار مخدر. كان فمها جافًا وكان النوم ما زال يلتصق بجفونها الثقيلة وهي تهبط الدرج. وجاء صوت السيدة «لوبلان» المرح يتردد في ابتهاج:

– صباح الخير. والتفتت «جولي» بدهشة، وعرفت مصدر الصوت عندما رأت السيدة «لوبلان» قرب باب المطبخ. وقالت السيدة «لوبلان»:

– تجدين عصير البرتقال الطازج في الإبريق. والأكواب في الخزانة اليمنى فوق الحوض. ماذا تريدين للإفطار؟

– بعض الخبز والقهوة. وسألتها السيدة «لوبلان» وهي تضع طبق الخبز أمامها وتعود إلى الخزانة لتحضر القهوة:

– ما برنامجك اليوم؟ وأجابت «جولي» وهي ترتشف عصير البرتقال:

– لا شيء. لقد فكرت في الذهاب إلى المنتزه العام هنا في «سانت مارتنفيل».

– حسنًا، لعلك تذكرين أنني حدثتك عن واحد من أصدقائنا يمتلك مستعمرة قديمة. وحاولت «جولي» أن تتذكر اسمه، وقالت:

www.rewity.com

– «إيتيان».

– نعم. لقد اتصل بي هاتفيًا بالأمس، وذكرت له أنك تقيمين معنا وتودين رؤية المناظر هنا، وهو يرحب بزيارتك لمستعمرته اليوم. وردت «جولي»:

– اليوم؟ اليوم؟ لم تكن تعرف ما إذا كانت في حالة تسمح لها حقيقة بتمضية بعض الوقت مع رجل فرنسي ثرثار كبير في السن.

– لقد اقترح أن تكوني هناك حوالي الساعة العاشرة صباحًا قبل أن تشتد وطأة الحر. والحق أنني لم أسأله عن المكان الذي تبحثين عنه، لكن من المحتمل أنه يعرف شيئًا.

– «كاميرون هول»؟! حسنًا لقد حسم الأمر. كانت «كاميرون هول» السبب وراء حضورها، وكان من الخطإ أن تفوّت أول فرصة أتيحت لها للحديث إلى شخص ربما يعرف عنها شيئًا مفيدًا.

– لقد أخبرته بأنني واثقة بأنك ستذهبين. أليس كذلك؟ وأومأت «جولي» موافقة وهي تقول:

– أوه.. كم أتمنى ذلك. وابتسمت السيدة «لوبلان» وقالت:

– إن «المعبد» مستعمرة «إيتيان» يقع على مسافة كيلومترات من المدينة وسأكتب لك التعليمات التي تساعدك على الوصول إلى هناك.

* * * * *

وعند التاسعة والنصف خرجت «جولي» قاصدة مستعمرة «إيتيان» ولم تكن قد استعادت سرورها وابتهاجها بالقدر الذي عرف عنها. ولم تتخلص من تلك الكآبة حتى بعدما اكتشفت أن تعليمات السيدة «لوبلان» قادتها إلى الطريق الذي قابلت فيه الرجل الغريب، بل لقد غمرها الفرح بحماقة عندما قادتها تلك التعليمات إلى منطقة أخرى من الريف، فلم تكن راغبة في أن تعود إلى المكان الذي يذكرها بالعينين الزرقاوين مرة أخرى. كان هناك طريق ترابي

يتفرع عن يسارها يحمل لافتة كتب عليها «طريق خاص –ممنوع المرور». وتنهدت «جولي» فقد كان ذلك الطريق المؤدي إلى المكان الذي تريده. وبدأت تحس بنوع من الاهتمام شغلها عن عنائها عندما اقتربت من المكان المقصود. كانت السيدة «لوبلان» قد أخبرتها بأن المستعمرة ستكون على يسارها بعد مسيرة حوالي أربعمائة متر تقريبا من المنعطف في الطريق الترابي، وكان هناك سور متهدم يسير موازيا للطريق، وبدا السلك الشائك ينفصل في نقاط عديدة عن الأعمدة. ومع ذلك لم تكن هناك فرصة ليجرؤ أي إنسان على التعدي بالدخول إلى الملكية الخاصة من خلال السور ما لم يكن لديه منجل، فقد كانت هناك كروم وأشجار نخيل شائكة ذات سعف مروحي قصير.

كان كل ما تستطيع «جولي» أن تراه من خلال الأشجار الكثيفة هو شبح لمبنى كبير أبيض، وكان ذلك هو القصر المقام في المستعمرة، ولكنه لم يكن يرى بوضوح من الطريق. وكان هناك عمودان أبيضان يحددان المدخل الذي كان مغلقًا بواسطة بوابات حديدية صنعت من قضبان متقاطعة.

وبدأت تحس بوضوح أن العز والأبهة قد أدارا ظهريهما إلى ذلك القصر. وفكرت في صاحب المستعمرة «إيتيان» وتوقعت أن يكون شخصا شاذًا غريب الأطوار.

وأوقفت سيارتها «الفولكس واغن» على جانب الطريق الضيق، ونزلت واتجهت إلى البوابة، وراحت تنظر من خلال القضبان محاولة أن تجد أثرًا للحياة. كان المكان يبدو مهجورًا.

واستطاعت أن تجد الجرس يتدلى إلى جانب أحد العمودين وجذبت الحبل الملتصق به، وتردد صوت الجرس قاطعا الصمت، وكان من المتوقع أن يؤدي ذلك القرع غير المنسجم إلى إيقاظ أي شخص نائم. وخطت خطوات لتقف أمام البوابة.

www.rewity.com

وسمعت حفيفًا مفاجئًا ينبئ عن شيء ينطلق دون أن يلاحظ، تبعه صوت دوامة هوائية تتجه إليها. وفجأة وجدت نفسها تحدق النظر إلى الأنياب البيضاء المعبرة عن الغضب كشف عنها كلب مزمجر وضع رجليه الأماميتين على البوابة حتى أصبح على مستوى النظر معها. وقفز قلبها إلى حلقها وتسمرت ساقاها وهي تحدق إلى كلب ألماني من كلاب الرعي. كان في سواده أشبه بليل بلا قمر ولا نجوم. لم تكن تلك هي التحية التي توقعتها، ولم يكن ذلك هو الضيف الذي جاءت تزوره!

وعاد إليها الاطمئنان عندما أدركت أن الكلب لا يستطيع أن يتخطى البوابة. ولم يكن في نيتها أن تنظر من يكون السيد «إيتيان»، أو كيف يبدو أنه سيكون. وقررت العودة إلى «سانت مارتنفيل». وبينما كانت متجهة نحو سيارتها سمعت صوتًا قويا يخاطب الكلب قائلاً:

– «بلاك»، اركع على الأرض. والتفتت «جولي» إلى الوراء لترى على الفور فم الكلب المزمجر يطلق أنّة مرحة بينما جثا على أرجله الأربع وأخذ يهز ذيله وقد أدار رأسه نحو الرجل الذي بدأ يخرج من القصر. وحدقت «جولي» وهي تكاد لا تصدق عندما رأت الرجل يربت رأس الكلب قبل أن يواصل السير نحوها. لقد كان الرجل الغريب نفسه الذي قابلته عند الرافد! وبدت على ثغره ابتسامة عريضة زاد في وضوحها اللمعان الجريء في عينيه الزرقاوين وهو يقول:

– أرجو أن تصفحي عن «بلاك» وطريقته في الترحيب بك. إنه لم يتعود الغرباء حتى ولو كانوا من النساء الصغيرات الجميلات.

– لقد جئت... وتجمدت الكلمات في حلقها وهي تحاول أن تحدق إليه. وانتابتها الدهشة والحيرة وتابعت:

– أ.. أنت.. أنت «إيتيان»؟

– في خدمتك يا آنسة «جولي أنطوانيت سميث»! كان يحني رأسه انحناءة كبيرة، وبدا شعره القاتم يلمع في سواد يشبه سواد كلبه «بلاك».

– ولكن.. كيف؟! أعني.. كيف عرفت؟! كانت تتلعثم مثل تلميذ في المدرسة.

– كنت متأكدًا إلى حد ما. فقد تعرفت سلة الطعام وطريقة «جوزفين» في الطهو، ووثقت بذلك عن طريق مكالمة هاتفية معها. وفتح قفل البوابة، وحرك ضلفة مصراع الباب ليسمح لها بالدخول. وأحست باندفاع عندما أدركت أن «إيتيان» كان يقتفي أثرها. ولم تستطع أن تخفي سرورها للعثور عليه مرة أخرى. واجتازت البوابة ذات القضبان، وما إن خطت نحو الداخل حتى توقفت لتطرح سؤالاً خطر لها:

– لماذا لم تخبر السيدة «لوبلان» بأننا تقابلنا في اليوم السابق؟ كان قد أغلق البوابة وراءها ووقف قريبًا منها إلى الدرجة التي جعلتهما يكادان يلتصقان. وكاد اقترابه منها يجعلها تكف عن التنفس، خاصة عندما بدأت تتفحص تعبيراته التي لا تعرف عمقها في عينيه الزرقاوين المبتهجتين.

– ولماذا لم تفعلي أنت؟!

– لم تكن لي الميزة ذاتها التي كانت لك، فلم أكن قادرة على استنتاج المكان الذي تقيم فيه. وظهرت على وجنتيها حمرة خجل طفيفة استطاعت بعدها أن تخطو لتتجنب التصاقه الذي كان يسبب لها شيئا من التوتر وأضافت:

– ثم كيف كان يمكن أن يكون وقع ذلك لو أنني أخبرتها بما حدث لدى لقائنا بعد الظهر في ذلك اليوم؟ وضحكت في تردد، وواصلت:

– كيف كان بإمكاني أن أقول مثلاً: «يا سيدة «لوبلان»، لقد تقاسمت طعام رحلتي مع رجل له شعر أسود. وعينان زرقاوان تفيضان بالحيوية، وعمره في الثلاثينيات.. ولكنني لا أعرف اسمه؟!» وهز رأسه وابتسم قائلاً:

www.rewity.com

– ليس غريبًا. ولكنك لا تقدرين على ذلك، ولعل هذا هو السبب الذي منعني من أن أطلبك بالتليفون.

– لا تطلبني؟! لماذا؟! كان الاضطراب قد بدأ يظهر في خطوط متكسرة على جبهتها بينما أمسك بذراعها وهما يسيران نحو القصر وقال:

– فيما مضى كنت أتجنب العذارى المفعمات بالنشاط والحيوية، لأنهن في العادة يجلبن التعقيد إلى حياة الإنسان. وهي مسألة ضمير.

– وإذن، لماذا طلبتني؟

– ربما دفعني باعث إلى ذلك! وتسمرت يده على ذراعيها لتحد من خطواتها، وجعلها تقف بجانبه. وركزت «جولي» عينيها في حذائه اللامع وفي بنطلونه الأبيض العاجي. وبدا في كل حركة من حركاته أنه صاحب المستعمرة المهيب. واستأنف الكلام:

– ولكنني يا «جولي» سعيد لكوني استسلمت لذلك الباعث. ولم تستطع إخفاء إحساسها بالسرور. كانت تريد أن تقول إنها سعيدة كذلك، ولكن كبرياءها وعدم ثقتها بمشاعره نحوها منعاها من ذلك. ولم تستطع في الوقت نفسه أن تنكر سعادتها؛ لأن ذلك كان سيبدو كذبة واضحة. ولم يكن «إيتيان» ذلك الرجل الذي يغيب عنه ذلك. ومن هنا فضلت ألا تجيب على الإطلاق. وسألها:

– هل أنت آسفة لمجيئك؟ ولم تحاول أن تكذب. فقد كانت عيناه تلحظان بدقة كل سكنة من سكناتها، فقالت:

– لست آسفة. قالتها في صراحة وقد استجمعت كبرياءها لتواجه عينيه المتفحصتين. وبدا على فمه طيف ابتسامة، وقال:

– إنك عظيمة، فالصراحة عادة ليست فضيلة تتسم بها النساء. وعلقت على الفور:

– ولا الرجال. وضحك ضحكة خافتة اقترنت بها ابتسامة عريضة، وأحست «جولي» بالدفء يغمر وجنتيها. واستأنفت السير على الفور وهي لا تخفي إحساسا واضحًا بالرجل الذي يسير إلى جوارها. وقال وهو يضحك:

– إن لسانك لاذع. أعتقد أننا سنستمتع تمامًا بيومنا يا «بلاك». كان يوجه كلمته التي قصد بها المضايقة إلى كلب الرعي الألماني الذي يسير مسرورًا إلى جانبه، وكانت عينا «جولي» البنيتان اللامعتان تنظران في شيء من الغيظ إلى طريقته الزائدة على الحد في إظهار الثقة بالنفس.

* * * * *

كانت الشجيرات الكثيفة قد بدأت تتضاءل دون أن تلحظ «جولي» ذلك. وبدأت خطواتها تتعثر، ثم توقفت تمامًا. فقد كان أمامها منظر لا يمكن أن تتغاضى عن رؤيته. كان هناك قصر ضخم يرتفع في الفخامة. واحتبست أنفاسها. فالأعمدة الضخمة تحيط بالبناء المربع الشكل وتحمل شرفة في الطابق الثاني، كذلك الإفريز الثقيل الذي يزين السقف المسطح. وكان ارتفاعه يثير الرهبة. وكانت هناك ضلف خشبية ذات لون أخضر غامق، تغطي النوافذ التي تمتد من الأرض إلى السقف في كل طابق، وتحمل واجهة المنزل التي تحولت إلى لون أصفر باهت مع مرور الزمن، بينما تدل أجزاء متبقية من الطلاء على أن القضبان الخشبية في الشرفة العليا كانت في يوم ما مطلية بطلاء أبيض. وعلى الرغم من الشوائب التي أثرت في البناء الذي عمره قرن، فقد بقي للمبنى بهاؤه وفخامته اللذان لم يكن يعرف السر وراءهما. وكان طرازه الإغريقي يضفي عليه رونقًا ملكيًا على الرغم من تهدمه الجزئي. وكانت المستعمرة محاطة بأشجار البلوط الضخمة وأغصانها بحجم جذع الشجرة العادية، تتدلى إلى الأرض بدرجة تمكن الإنسان من أن يجلس عليها كما لو كانت مقعدًا. وكما هي العادة، فقد كانت تلك الأغصان المورقة

www.rewity.com

مكسوة بالطحالب الإسبانية ذات اللون الرمادي المائل إلى الاخضرار. وحولت «جولي» بصرها في النهاية إلى «إيتيان» الذي كان يبتسم في رقة وتعاطف وقد أدرك كم كان المنظر مثيرًا. وقال:

– إن المعبد يترك دائمًا الانطباع ذاته على أي وافد غريب. وعاودت النظر إلى المستعمرة وأطلقت أنفاسها قائلة:

– يا لسعادتك بامتلاكها! وابتسم في حزن وقال:

– إنها هي التي تملكني. كانت عيناه تلاحقان عيني «جولي» بينما استقرت يده على ظهرها. واستأنفا السير نحو القصر وواصل كلامه:

– وإنها لأعز لديَّ من أي سيدة عرفتها من قبل. لقد شهدتها لأول مرة منذ أربع سنوات ولم تمض سنة بعدئذ حتى كنت قد استسلمت واشتريتها. ونظرت «جولي» إليه في شيء من الدهشة، وقالت:

– كنت أظن أن المعبد كان مقرًا لإقامة أسرتك، وأنك قد ورثته عن أجدادك.

– لو كان كذلك لما سمحت بأن يصل إلى الحال التي كان عليها عندما اشتريته. لقد كان يستعمل حظيرة للمواشي!! كانت هناك خمس درجات تؤدي إلى الرواق الخشبي المسقوف وإلى الباب الضخم المزدوج المؤدي إلى الداخل. ولاحظت «جولي» أن الأجزاء التي اكتست بألواح خشبية حلت محل الألواح البالية في المدخل بينما فتح «إيتيان» أحد الأبواب ووقف ينتظر أن تتقدمه لتدخل إلى البيت. وكان المكان معتمًا إلى درجة كبيرة في البداية، ثم اعتادت عيناها النظر في غياب أشعة الشمس الساطعة. وبدأ «إيتيان» يفسر لها سبب البرودة في الداخل:

– إن سماكة الجدران تصل إلى حوالي نصف متر، ولذلك تظل درجة الحرارة منخفضة على مدار السنة.

كانت الردهة الفسيحة تقسم المنزل قسمين، وكان هناك باب آخر مزدوج أمام «جولي». وعندما فتحته وجدت على جانبي الردهة أربعة أبواب، وكانت هناك على الجانب الآخر ثلاثة أبواب وسلم حلزوني. وكان المكان خاليًا من أي أثاث ما عدا منضدة. وأمسك «إيتيان» بمرفقها، وسار بها إلى الصالة وقال:

– إن أرضية الطابق الأسفل خربتها الماشية كليًا، وقد استبدلت بها أخرى جديدة في الشتاء الماضي. وتبعته «جولي» وهو يسلك الطريق إلى حجرة مخصصة لحفظ أدوات المائدة وكذلك إلى الحجرة الكبيرة التي تشبه حجرة المعيشة في يومنا هذا، ثم إلى حجرة المائدة فحجرة المكتب حيث كان مالك المستعمرة يصرف أموره اليومية ويحتفظ بسجلاته، وأخيرًا إلى حجرة صغيرة كانت تستخدم قاعة للجلوس. كانت كل الحجرات عارية من الأثاث وتحت الترميم. ولاحظت «جولي» الخطوط القاسية على وجهه وهو يشرح كيف أن أماكن المدفئ المحفورة في كل حجرة قد خربت عن عمد وأصبحت غير قابلة للإصلاح، وأوضح أن بدائل لها يجري إعدادها، وأحست بغضبه؛ لأن الصورة الأصلية لن تعود كما كانت. وابتسم وقال:

– شكرا لله أن الماشية لا تحاول أن ترتقي السلم. وقادها إلى الدرج وتابع:

– هذا القصر له سلالم حلزونية بيضاوية فاخرة لا تستند إلى دعائم خارجية، والدرج مصنوع من الخشب السرو، أما الدرابزين المنقوش فمن الماهوجني ولم تستخدم المسامير في تثبيته، فكل عمود ركب بمفرده في الدرج وفي القضبان. كان الخشب لا يزال يحتفظ بلمعانه أملس صقيلاً، ولم تستطع «جولي» أن تمنع يدها من الانزلاق على سطحه وهما يصعدان الدرج إلى الطابق الثاني. وهنا وجدت أن المدافئ في حجرات النوم لم تُمسَّ على الرغم من مظاهر الإهمال فيها. وكان «إتيان» قد قام بتنظيف إحداها وأعاد طلاءها، وكان

www.rewity.com

هناك مزيد من الأثاث يعاني من القذارة التي تطمس جماله. واصطحبها مرة ثانية إلى الردهة التي تقسم الطابق الثاني إلى قسمين متساويين يقع عند طرف كل منهما باب مزدوج يؤدي إلى الرواق العلوي، وجعلها تجتاز أحد هذين البابين، وكان المنظر الذي شهدته مثيرًا وأدركت أنه يطل على الجانب المقابل لواجهة المبنى حيث المروج الخلفية. كان هناك شريط من المياه اللامعة يومض لعينيها من خلف أجمة من أشجار البلوط والنباتات ذات الأوراق والزهور جميلة. والتفتت إلى «إيتيان» سائلة:

– هل هناك بركة مائية؟

– ذلك هو الرافد «تيشه». لم تكن هناك طرق في الماضي، وكانت المستعمرات تقام على حافة رافد أو آخر للانتقال، تمامًا كما كانت المستعمرات الأولى تقام على ضفاف «المسيسبي»، وبذلك كان يسهل عليهم نقل المحاصيل. فقد كانت المجاري المائية هي الطرق في الماضي في «لويزيانا». وأومأت «جولي» مقتنعة، وبدأت تنظر من جديد إلى المروج الخضر، وخطرت لها فكرت مفاجئة:

– إنك لم ترني المطابخ.. أين هي؟

– كان الناس يخشون النار كثيرًا، ولذلك لم يقيموا المطابخ داخل المبنى الرئيسي. وابتسم «إيتيان» لسؤالها الأنثوي وتابع:

– لقد وجدت بعض الأساسات في الجانب الشمالي على مقربة من حجرة الطعام، وأعتقد أنها كانت مطابخ. وسألته:

– أين تعيش؟ ولمعت عيناه لسؤالها بشكل أربكها، وتابعت:

– أقصد، أيعقل أنك تعيش داخل هذا البيت؟ أو على الأقل ليس الآن. وأخذ يدها، وقال:

– تعالي، سأريك أين أعيش. وكان دفء يديه يبعث فيها شعورًا بالرجفة.

– 6 –

عاد «إيتيان» ومعه «جولي» إلى الطابق الأرضي عبر الباب الذي دخلا منه، ثم استدارا إلى اليسار بدلاً من أن يسلكا الطريق المؤدي إلى سيارتها. وبينما كانا يدوران حول القصر اكتشفت «جولي» مبنى بدا وكأنه نسخة مصغرة من المعبد. وصاحت في بهجة:

– إنه نسخة مصغرة ومطابقة للقصر.

– تعرف عادة باسم «الغارسونييرة» حيث كان يسكن عادة الشبان غير المتزوجين من الأسرة. وفتح الباب ثم وضع يده على كتفها ثانية واصطحبها إلى الداخل. كانت حجرة واحدة كبيرة تتصل بدرج يؤدي إلى الطابق الثاني وحاجز حديدي يعزل منطقة المطبخ. وكان الأثاث بسيطًا يناسب الرجل. قادها وضغط يده عليها إلى داخل الحجرة. كانت أشبه بذبابة وقعت في شراك عنكبوت لا تستطيع الخلاص منه. وجاء صوت «إيتيان» في إغرائه وتدليله الرقيق يقترب من أذنها، أو على الأقل تصورت ذلك؛ إذ سمعته يقول:

– هل أحضر لك شرابا منشطا؟ وخطا نحو المطبخ. وراحت «جولي» تذرع الحجرة الصغيرة في تردد. وأحست بأنهما قد أصبحا في مكان منعزل مما سبب لها بعض القلق. وشعرت بأنه ليس من اللائق أن تكون في منزل «إيتيان» على الرغم من أنها كانت تتجول في بيت «جون تالبوت» بحرية كاملة. وقدم «إيتيان» إليها الكوب وقال:

– عصير ليمون. ونظرت «جولي» بحذر إلى عينيه اللتين أخذتا تضيقان، ورأى يدها ترتجف وهي تتناول الكوب بينما كانت رموشه القاتمة المتجعدة تظلل زرقة عينيه.

www.rewity.com

– هلا جلسنا في الخارج؟ ربما تكونين أكثر اطمئنانًا هناك. قالها وهو يسخر منها، لكن «جولي» قبلت الاقتراح.

وعندما جلسا على الكرسي فوق المرج الأخضر فقدت المحادثة بينهما حرارتها. وقنع «إيتيان» بالنظر إلى البيت الذي يسيطر على المنطقة. واستغلت «جولي» الفرصة لتتفحصه عن قرب. لم يكن في نظرها الشخص نفسه الذي التقت به من قبل أو خيل إليها أنها التقت به.

كانت لا تزال هناك رشاقة الحركة وذلك التناسق الغريزي الذي يميز الشخص الرياضي، والعينان الزرقاوان القاتمتان تلمعان بالبهجة، والابتسامة تظهر الخطوط الغائرة قرب فمه. ومع ذلك بدا لها وقد مال إلى التراخي والكسل كأنه شخص لا يأبه للحياة.

واليوم رأت «جولي» شيئًا آخر. رأت فكه يبرز في تصميم، وأنفه الدقيق يظهر في أرستقراطية تعبر عن الاشمئزاز، والعينين الزرقاوين تضطرمان بالغضب المتأجج، والشدة القاهرة التي تنبعث وكأنها شذى حوله. وجذب انتباهها كذلك وقاره وتصميمه الحديدي الذي ينبئ بأنه يمكن أن يكون قاسيًا متحجر القلب إذا شاء. وسألها وقد أشاح بوجهه بعيدا عنها:

– أما زلت تترددين في أن تثقي بي؟ كانت صورته تنطبع على الأشجار القاتمة أمامها، وأيقن بأنها كانت تتأمل ملامحه، قالت:

– لو وضعت قرطًا ذهبيًا في أذنك لبدا مظهرك كقرصان بارع. وبدت وهي تحاول إخفاء حمرة الاضطراب الظاهرة على وجهها.

– أقبل ذلك على أنه مديح وإطراء. وبات يتفحصها. وحاولت «جولي» أن تتجنب نظراته الثاقبة. وواصل كلامه:

– للأسف، إنني رجل فقير لا أمتلك سوى المستعمرة. وعلقت فيما بدا أنها تغير الموضوع:

– إن أغلى ما في الحياة متاح للجميع بالمجان. قالها بشيء من الضحك والأنفة والاعتزاز:

– أؤكد لك أنك، بطريقة أو بأخرى، تدفعين الثمن لكل شيء. قالت وقد أدهشتها النغمة الساخرة في صوته:

– وما ثمن الحب؟

– إن أغلى ما يملكه الرجل.. هو حريته. وضحكت «جولي» وهي لا تدري كيف تعلق على ملاحظاته، وقالت:

– هل أنت من أولئك الرجال الساخطين الذين يصممون على البقاء دون زواج؟

– وهل أنت واحدة من أولئك اللائي يعتقدن أن السعادة يجب أن تنتهي بالزواج؟ ورفعت ذقنها في شيء من التحدي، وأجابت:

– نعم، أولاً. تبدأ بالحب وتستمر بالزواج، وأنا أحب الشاعرية.

– إنك تتحدثين في صدق. وما هو الحب؟ وتنشقت نفسًا عميقًا، ثم زفرت أنفاسها ببطء وهي تحدق إلى أشعة الشمس الساطعة وهي تغرق البيت في وهج أصفر عميق:

– لا أعرف، ولم يسبق أن جربت الحب. وماذا عنك أنت؟

– مرات عديدة. كانت سطوة عينيه الساخرتين قد اتجهت إليها، وأحست بالقوة الكامنة في رجولته. وتابع:

– وهذا هو السبب في كوني لا أؤمن به.

– إذا كانت حريتك غالية لديك إلى هذا الحد، فلماذا ربطت نفسك بهذه المستعمرة التي قلت إنها تأسرك أكثر مما تفعل أي امرأة؟

– إنك تنصتين إلى ما يقوله الرجل، وهذه ميزة أخرى نادرة. كانت عيناه تتفحصانها بنظرة بطيئة وهما تحدقان. وواصل كلامه:

www.rewity.com

– أضناني السفر، وكنت لا أعرف شيئًا عن أجدادي. وهذا المكان كان يحمل اسمي.

– لا أفهم. قالتها وهي ترفع رأسها متسائلة. وضحك وقال:

– سوف أطلعك. ووضع كوبه على الأرض في الرواق المكسوّ بالآجر في «الغارسونييرة»، وفعلت «جولي» الشيء نفسه. وامتدت يده حولها ليعاونها على هبوط درج الرواق الضيق. وأحست بضيق؛ لأنه يرفع الكلفة معها في سهولة. ولم تستطع أن ترد بالطريقة ذاتها من عدم الاكتراث.

كان «إيتيان» يحيرها. كان لغزًا بالنسبة إليها ولم تستطع أن تمنع خاطرًا طرأ لها عن السبب الذي جعله يعامل النساء بذلك الحذر. وعادت تفكر في أنه ليس حذرًا، لكنه تحرر من الوهم. وكان طبيعيًا أنه الرجل له جاذبيته الكبيرة التي تجعل النساء يتجمّعن حوله كما يتجمّع الذباب على عسل النحل، وربما نشأ احتقاره للنساء من كثرة ألفته بهن. أرادت «جولي» أن تقطع الصمت الذي ساد وهما يسيران، فقالت:

– إذا كنت قد أحسست بالحاجة إلى الاستقرار، فهل فكرت في أن يكون لك أطفال؟ وألقى عليها نظرة جعلت أحشاءها تضطرب. واستقرت عيناه على شفتيها فترة أطول قليلاً مما تحتمل، وفكرت في كيف يكون الحال لو أنه عانقها. وكانت تعتقد أن له خبرة كبيرة في المغازلة. وقال:

– ولكن الأطفال ليسوا نتاجًا من الزواج. وكان وراء ابتسامته شيء كثير من الخبث جعل «جولي» تدرك أنه كان يحاول أن يصدمها. واحتفظت بهدوء صوتها بالدرجة التي لا تجعلها تصل إلى توبيخه أو السخرية منه. وقالت:

– من الأفضل للطفل أن يولد في ظل الزواج.

– إنك تتحدثين بالصواب دائمًا. وتوقف «إيتيان» وتوقفت «جولي». وكانت يده تضغط على ذراعها كأنها تصدر أمرًا لتبقى حيث كانت بينما سار هو إلى

شجيرة مزهرة، وقطع زهرة كبيرة بيضاء قربها من أنفه ليشم عطرها قبل أن يقدمها إليها. وعندما أطبقت أصابعها على يده لتتناول الغصن الصغير، لم يفلتها على الفور بل أخذ يضغط عليها لتبقى. وقال في صوت أجش:

– إن الفضيلة يجب أن تنال المكافأة دائمًا. واختلس نظرة إلى رموشها من وراء نقاب رموشه، وبدا أثر الابتسامة التي كان قد كبحها، وأخذ يتطلع إلى المنظر الممتد أمامها. وكانت ذراعه حول خصرها تدفعها إلى الاقتراب من المرآة المائية العاكسة. كان هناك عمود عتيق تنتشر عليه بعض البقع أقيم وحيدًا قرب الماء، وكان نظيره يرقد في كومة من أنقاض الأحجار وبقايا النقش وسط الأعشاب الطويلة. وفي المكان كان المدخل الأمامي للمستعمرة، وكان يشبه البوابات التي دخلت منها «جولي»، ولكنه الآن قد تحول إلى أطلال. وقادها «إيتيان» إلى العمود القائم في هدوء:

– هذا ما جعلني أتخذ القرار النهائي بشراء المستعمرة. راحت «جولي» تشاركه التحديق إلى العمود حيث كانت هناك حروف باهتة محفورة بقيت على الرغم من فعل الزمن وكانت متآكلة إلى الدرجة التي جعلت «جولي» تستغرق بعض الوقت لتقرأ الكلمة:

– «كاميرون». ونطقتها في نعومة تكاد لا تسمعها الأذن وهي تنعم النظر خشية ألا تكون كذلك. وباتت تحدق في اتجاه القصر المنتصب بكل فخامته بين أشجار البلوط الضخمة قبل أن تستدير إلى «إيتيان» صارخةً ودموع الفرح تملأ عينيها:

– لقد وجدته! كان صوتها خاطفًا، حادًا ومفعمًا بالعاطفة. وواصلت:

– لقد وجدت «كاميرون هول». وامتدت يدها تتحسس يده والسعادة تغمرها. وقد حيرته بهجتها ونجحت في أن تجعل تلك البهجة تتدفق وقتًا سمح لها بأن تعطيه فكرة عن التفاصيل. وتركت ذراعيها تلتفان حوله وهي تحدق إلى

www.rewity.com

الاسم المحفور على العمود. وأسندت رأسها إلى صدره العريض تعبيرًا عن سعادتها، وتابعت:

– لا أحد ممن سألتهم سمع من قبل عن «كاميرون هول». وكنت أخشى ألا أجدها على الإطلاق. والآن أجد أنها بيتك! لم يكن بوسع «جولي» أن تتحمل مواجهة عينيه. فقد أحست بشيء من الخجل، لأنها استجابت بحرية كاملة. وسألها في رقة:

– هل أشكرك أم أشكر أسلافك؟ وهمست قائلة:

– الاثنان.

– ابقي معي لتناول وجبة الظهيرة معًا. وترددت، ثم سمعته يقول:

– «جولي»! وأحست به ينجذب إليها، وقالت:

– أود أن أبقى هنا. كانت نظرته إليها توحي بأنه ربما حاول أن يصل إلى غايته بطريقة أو بأخرى. وقال:

– أما عن الطعام فإنه آخر ما أفكر فيه الآن. وسلكا الطريق الذي سلكاه من قبل عائدين إلى القصر. وخطر لـ «جولي» أن المنزل الكبير كان ينظر إليها بالرضا والارتياح. وتنشقت نفسًا عميقًا محاولة أن تستمتع بكل عطر وبكل صوت أحاطا بها في أسعد لحظات حياتها. فهي لم تكتشف «كاميرون هول» فقط، ولكنها اكتشفت «إيتيان» كذلك. وكان فمها يشرق بابتسامة ذهبية كضوء الشمس. وعندما دخلا المبنى الصغير الذي يمثل صورة طبق الأصل من القصر، وقال:

– أمن الضروري حقًا أن نأكل الآن؟ وقالت في تلعثم:

– نعم. وأطلت عيناه الزرقاوين وقد ضاقتا على وجهها الذي كان يحاول أن يحتفظ بثباته. وقال:

– إنك على صواب بالتأكيد! ولمست يدها ذراعه محاولة إيقافه عندما همّ

بالابتعاد عنها. ونظر إلى القلق البادي على وجهها، وقال لها بحدة:

– لا تنظري إليّ هكذا، ربما لا أكسب الجولة الأخرى مع ضميري. لقد كنت بالفعل سببًا في القضاء على راحتي النفسية.

وأدركت «جولي» عندئذ أنه كان لا يريد أن يكتفي بالمقابلات الطاهرة، وعرفت كذلك أنها ما لم تكن على استعداد لتحمل النتائج فإن الأفضل أن تتركه يأخذ المبادرة. ولابد من أن شيئًا في ملامحها كان يعكس التردد الواضح في مبلغ ثقتها، فقد رفع «إيتيان» ذقنها المطأطئة، وابتسم قائلا:

– نسيت أن أخبرك بأن عليك أن تساعدي في إعداد وجبة الظهيرة. وأجابت في مرح:

– إنني ماهرة جدًا في ذلك؛ إذ حصلت على دبلوم في الاقتصاد المنزلي.

– يجب إذن أن نستفيد من دراستك بطريقة عملية.

واتجه «إيتيان» إلى الثلاجة وفتح بابها، وقال:

– ما الذي تستطيع خريجة الاقتصاد المنزلي أن تصنعه من بعض الخس وبقايا اللحم وبعض البيض المسلوق وبعض ثمرات الطماطم؟ نريد شيئًا لذيذ الطعم، فهذا كل ما لدينا من الطعام كانت تستطيع أن تضحك في بساطة الآن وقالت:

– إذا استطعت أن تحضر شيئا من الزيت والخل وبعض البهارات أمكنني أن أعد طبق سلطة ممتازا. وأجابها مشجعًا:

– إنه الطبق المفضل لديّ، واتركي لي الباقي. ولم تجد «جولي» وقتا لتعرف كيف استطاع «إيتيان» أن يجهز كل شيء؛ لأنها كانت مشغولة بعملها الروتيني. وكان مذاق واحد من المتبل كفيلا بأن يثير الشهية. واستطاع هو أن يحول الحديث بحكمة إلى مشروعات لترميم المستعمرة. وكانت «جولي» تبدي اهتمامًا واضحا بالحديث، ومع ذلك كانت بين الحين والآخر تختلس

www.rewity.com

النظر إلى بريق شعره الأسود أو إلى التباين الحاد بين عينيه الزرقاوين وبين قامته وملامحه الأخرى. ولم تستطع أن تتابع مشروعاته. كان النظر فحسب إلى وجهه الوسيم كافيًا لأن يجعل «جولي» تترنح وهي تكاد لا تصدق أنه يمكن أن ينجذب إليها. قال:

– ... وفي الأيام الماطرة كنت أُعنى بإكمال الخشب اللازم لأريكة على الطراز الفيكتوري ولكرسيين ينسجمان معها. وكان في خلال ذلك يحتسي شرابًا يصاحب الوجبة التي يتناولها. وواصل حديثه قائلا:

– وسوف يحتاج الأمر إلى طبقة أخرى فقط من الطلاء وتكتمل الأريكة. وتبقى فقط إعادة التنجيد، وسوف يكلفني إنجازه الكثير. وصاحت «جولي»:

– التنجيد.. إنه هوايتي. ونظر «إيتيان» إليها بنظرة جعلتها تحمر خجلاً، فلم تكن تقصد وضعه في موقف يجعله يطلب المساعدة في هذا العمل. وقالت بسرعة:

– إنني ماهرة حقًا في التنجيد، وكنت أكسب نقودًا في خلال فترة الدراسة من هذا العمل.

– أنا لا أشك في قدرتك، ولكنني أتذكر أنك قلت إنك هنا فقط في إجازة. وانتفخ صدرها بالبهجة؛ إذ أدركت أنه لم يكن يركز في التنجيد قدر تركيزه في اعتزامها الرحيل؛ أي أنه يركز فيها هي فقالت:

– كنت قد خططت للإقامة ثلاثة أسابيع، أو إلى أن تنفد نقودي. ولمع في عينيه ضوء خطير وهو يقول:

– في وسعي أن أعوّضك وقتك إذا كان بإمكانك البقاء فترة أطول. وضحكت بينما كانت يداها تعبثان بكأس الشراب وقالت:

– ربما تندم على ذلك العرض. وتردد ثم قال:

– ألا يكون مخجلاً أن تضطري إلى الرحيل بينما لم يمض على اكتشافك

لـ«كاميرون هول» غير وقت قصير؟ وفكرت «جولي» في صمت ثم قالت:

– وأنت؟ ماذا عنك؟ كانت تفكر لماذا اختار كلماته بهذه العناية. وكان من الواضح أنه لا يريد أن يرتبط. وأدركت أنه لا يحق لها بناء على ثقتها بمشاعرها نحوه، أن يعتقد العكس. كان يرى أنها جذابة، وكانت على ثقة بذلك، ولكنه كان رجلاً. وكانت ترى أن الحب ليس عاطفة ضرورية لدى الرجال عندما يصل الأمر إلى الارتباط، أو على الأقل ليس بالقدر ذاته لدى المرأة. وكان قد أخبرها بالفعل بأنه لا يؤمن بالحب. وبدأت يداها تضطربان، وأسرعت تشغلها بتكديس الأطباق لتحملها إلى حوض الغسيل.

كانت تدرك أن «إيتيان» يلاحظها باهتمام وتركيز، ولكنها لم تكن تعرف ماذا تقول. كان خارجًا عن نطاق خبرتها السابقة، وحرصت على أن تلتزم بالحديث حول الموضوع الذي يبقي علاقتها في منتصف الطريق. وقالت:

– إنني سعيدة؛ لأن «كاميرون هول» لم يتم ترميمها. وكانت تحرص على أن يظل صوتها رقيقًا وهي تحمل الأطباق إلى الحوض. وتابعت:

– لأن بقاءها على ماهي يحفظ لها الطابع الذي كانت عليه منذ زمن بعيد، والتفتت موجهة الحديث إلى «إيتيان»، لكنها وجدته واقفًا بجانبها مباشرة. كان يطل عليها بحيث شعرت بأنها قزم لا قيمة له. وزادت من ذلك الشعور الملامح المبهمة على وجهه في شيء من القتامة. وجاءت كلماته تثير في عينيها لمحات من الألم وهو يقول:

– إنك إنسانة تحبين الحياة العائلية يا «جولي»، وأرجو أن تعرفي أن الزواج لم يكن في يوم جزءًا من مشروعاتي.

– ما الذي تنتظر مني أن أرد به؟ قالت ذلك وهي تحبس دموعًا كادت تقفز إلى مقلتيها. وأجابت في حدة قاطعة بينما كانت عيناه تسلطان نارهما الباردة على وجهها:

www.rewity.com

– لا أريد للنفاق أن يطل برأسه القبيح، ومع ذلك فمن حقي أن أعرف أنني لست طفلة.

– لا، إنك امرأة كاملة، ولقد اكتشفت ذلك. كانت فتنته الطاغية قد أسرتها تمامًا، وبدأت تتحرك حوله في شيء من الزهو وهي تجمع بقية الأطباق. ولكن ذراعه امتدت لتسد الطريق أمامها وقال:

– وعلى الرغم من تعقلي الذي يناديني أن أدعك تخرجين من هنا قبل أن أؤذيك، فإن عقلي يلح بأن أجد الأسباب لبقائك. كان صوته عناقًا هامسًا. وأحست «جولي» بركبتيها تتهاويان، وأدركت أنها إذا تركت الخيار لديها فستجدان طريقهما إلى عنقه. وأجبرت نفسها على أن تستدير نحو الأطباق المتسخة في الحوض. وقال في صوت أجش:

– هل تعرفين أن كلمة «جولي» تعني جميلة في الفرنسية؟

– وماذا عن اسم «إيتيان»؟ وعانقها قائلاً:

– «إستيفن». فتأوهت «جولي» وابتعدت عنه بحيث لم يستطع أن يمنع انطلاقها من المكان. وأحست بطعنة مفاجئة في شيء من الخوف توجه إلى قلبها. وانتابها فزع كبير؛ إذ تذكرت «ميشيل» و «جي» يتحدثان عن شخص يدعى «إستيفن». كان ينظر إليها بشيء من الحيرة والحذر، وقال:

– من المؤكد أن السيدة «لوبلان» أخبرتك من أنا. إن اسمي «كاميرون»، «ستيف كاميرون».

– لقد كانت تسميك «إيتيان». قالتها «جولي» في هدوء وتذكرت ما حدثتها عنه «ميشيل» في تحذير؛ إذ قالت لها: «إن النار تشتعل، وإذا ما اقتربت من «ستيف» فستحترقين». وكانت أسرة «لوبلان» تعتبره محجوزًا لـ «كلودين لوبلان». واختتم الحديث قائلاً:

– لقد كانت دائمًا تسميني «إيتيان».

- 7 -

وبدأت بعض الأسرار تتكشف أمام «جولي». فقد كان «جي» قد ألمح إلى أن «ستيف» خصم هائل. ولم يكن ذلك إلا بعض الحقيقة عنه. وقد خبرت بنفسها كيف انهار دفاعها أمام أولى مداعباته. ولم يكن غريبًا أن يكون وجود اسم «كاميرون» على العمود وراء شرائه المستعمرة. ونظرت «جولي» إلى «إيتيان» وقد أصبح الآن «ستيف كاميرون»، وضحكت في اضطراب وقالت:

– أشعر بغباء كبير. فقد تحدث «جي» و «ميشيل» عنك باسم «ستيف» بينما تحدثت السيدة «لوبلان» عن «إيتيان». ولقد ظننت أنني سأقابل رجلاً يميل إلى سن أكبر.

– أستطيع أن أفهم كون «جي» يتحدث كيفما شاء ليشوّه سمعتي لديك، ولكن لماذا تفعل «ميشيل» ذلك؟

– ليس لـ «جي» مأرب فيّ، أما «ميشيل» فأنا التي سألتها عنك، وقد وصفتك لي فقط. وابتسم ابتسامة عريضة، وقال:

– لا تقولي إن «ميشيل» تعتبرني خطرًا. وأجابت على الفور:

– ليس عليها. ومالت عيناه الزرقاوان إلى القتامة وتحدَّث في شيء من الإغواء:

– هل أنا خطر عليك؟ كانت تدرك بالفعل أن «ستيف كاميرون» يعني خطرًا بالنسبة إليها، ولكنها لم تكن على استعداد للبوح بإحساسها. وقالت:

– لا تكن سخيفًا، فأنا واثقة بأنك لا يمكن أن تؤذيني. وأخذت تجمع بقية الأطباق وتابعت:

– هل أخبرتك السيدة «لوبلان» بأن «كلودين» ستصل يوم السبت المقبل؟

www.rewity.com

– نعم، ذكرت ذلك. قال ذلك وهو يتناول الأطباق من يدها ليضعها في الحوض. وأضاف:

– اتركيها، تعاليْ شاهدي الأثاث الذي كدت أنتهي منه. وانضغطت شفتاها عندما حوّل مجرى الحديث عن حياته الشخصية وعن علاقاته بـ «كلودين». وحدثت نفسها: «وقد تنقصني الخبرة، ومع ذلك فلست فتاة ريفية خجولة تنسحب بهذه السهولة». ثم رفعت رأسها في تحدٍّ، وكان يرى التصميم في عينيها وهو يصطحبها خارج «الغارسونييرة»، قائلة:

– أظن أن هناك علاقة ما بينك وبين «كلودين»؟ كانت تظن أنها قد فاجأته، ولكنه أجاب ببساطة:

– إن لـ «كلودين» الفضل في وجودي هنا.

– ماذا تعني؟

– لقد تقابلنا في «نيوأورليانز»، ودعتني إلى زيارة والديها فرافقتها إلى منزلها وجاءت بي إلى هنا لنقضي يومًا وكانت ترسم لوحة للمستعمرة التي اشتريتها فيما بعد. ولم تستطع أن تسأله عما إذا ما كان قد اشترى المستعمرة بسبب «كلودين». وطرحت عليه سؤالا آخر:

– ماذا تعمل؟

– أعيش، أزرع قصب السكر ويدر عليَّ دخلاً أسدد به رهن العقار وأُدخل بعض التحسينات على القصر. وهناك حديقة خضراوات تنتج طوال السنة، ولديَّ بقرة مدرة للبن تعطيني عجلاً صغيرًا للذبح كل عام. وليست لديَّ رغبة في الثروة أو الجاه. هل تشعرين بالإحباط؟

– كلا، ولكنك من النوع الذي يمكن أن ينجح في أي شيء. وتجنب التعليق في لباقة، وفتح بابًا كبيرًا يؤدي إلى مبنى فعل فيه الطقس فعله، وهو يقول:

– الأثاث هنا. وحصر الحديث حول الأثاث، وكانت أسئلته تدل على أن

لديه معلومات لا بأس بها. ووجدت «جولي» أن في وسعها الإجابة بطريقة تدل على الفهم.

– وخرجا من المبنى الصغير، وأحست «جولي» بأن شعور الألفة بينهما قد أخذ يتضاءل. كان «ستيف» مهذبًا وساحرًا، ومع ذلك بدا وكأنه لا يحتفظ بأية مشاعر شخصية تجاهها. وكانت تحس بالسعادة في صحبته. وخطر لها أن تمد ذراعيها نحوه لتنعم من جديد بما تقاسماه من السعادة.

كان القصر يرتفع في فخامة مطلا على الطبيعة بحيث يُرى من أية بقعة يسيران فيها. وعندما توقفا بجوار غصن يتدلى من شجرة بلوط ضخمة نظرت إليه من جديد، بينما أخذت أصابعها تعبث بباقة من الطحالب، وتنهدت وسألت:

– أتظن أنهم كانوا يعيشون حقًّا في ترف وإسراف كما سمعنا؟ وأجاب «ستيف»:

– لم تكن حياتهم كلها نومًا ولهوًا، وإلا لما استطاع مالك المستعمرة أن يحتفظ بها للعام التالي. كانوا يديرون أعمالاً كثيرة في مستعمراتهم لكي يحصلوا على عائد مربح، ولو فشل المحصول عامين متواليين لفقد الواحد منهم عمله، وإذا نجح لفصول عدة متوالية، فإنه يصبح إمبراطورًا صغيرًا.

– ملك السكر! وابتسمت ابتسامة أظهرت بعض الخطوط الغائرة على وجهها:

– كان ملاك المستعمرات قليلين، ولم يزد عدد من كان يمتلك الرقيق على ثلث السكان في «لويزيانا» ذلك الوقت. ولكن الأبهة والفخامة تشدان الانتباه أكثر من صراعات الفقراء التي لا طائل وراءها.

– إنك تجعلني أحس بالذنب، لأنني أعبّر عن إعجابي بحياة ملاك المستعمرات. وقال مبتسمًا:

www.rewity.com

– ما زلت شابة، وليس هناك شيء أكثر شاعرية من أن يتخيل الإنسان أيام المستعمرات الذهبية. فالذين أقاموها كانوا أشخاصًا صارمين بنوا إمبراطورياتهم ونحتوها من القفار البرية في المناطق شبه الاستوائية واستمتعوا بثمار كدحهم. وكان استخدام الرقيق بشكل أو بآخر، شائعًا في العالم أجمع في ذلك العصر.

– نعم. كان الناس في «إنجلترا» يعانون العمل في مناجم الفحم وتشغيل الصبية الصغار، وكانت «روسيا القيصرية» تعاني رقيق الأرض وكان النبلاء في بلدان أخرى يمارسون صورًا أخرى من الاستغلال.

– لقد ابتعدنا عن سؤالك حول ما إذا كان ملاك المستعمرات يصنعون حقا مقابض الأبواب في بيوتهم من الفضة والذهب ويلقون بالدولارات الفضية على الزبد خلف القارب النهري. وأومأت «جولي» وقالت:

– أستطيع أن أتخيل مدى صدق ذلك!

– يمكنك أن تثقي بأن القصص حقيقية مهما بدا فيها من المبالغة. لقد كانوا مثلاً، عندما يصل ضيف إلى البيت، يوقفون الساعات طيلة وجوده بينهم ابتهاجًا بالمناسبة. وكان التفوق على الآخرين ليس من مظاهر الثراء والغنى داخل البيوت فقط، لكن في مظاهر الكرم لعبة يحرص عليها ملاك المستعمرات. فعندما كان أحد العبيد يقدم مائدة الإفطار لضيفة من النساء في الصباح كان يضع وردة متفتحة على الوسادة، وإذا لم تستيقظ كان يضعها تحت أنفها حتى تصحو، وعندئذ يقدم لها فنجانًا من القهوة لينشطها فتظن الضيفة أن الوردة قد أعادت إلى روحها النشاط.

– يا لها من فكرة جميلة!

– وهناك واحدة من أطرف القصص عن تبذير ملاك المستعمرات وقعت قريبًا من هنا. أتحبين أن تسمعيها؟ وأومأت أنها تتحمس لذلك فأضاف:

– كان السيد «تشارلز دوراند» يمتلك مستعمرة تطل على نهر «تشيه» على بعد كيلومترات قليلة من «سانت مارتنفيل»، وكان نابضًا بالحيوية رزق من زوجته الأولى قبل أن تموت اثني عشر طفلا، وأقسم فوق مقبرتها أنه لن يتزوج ثانية. ولكنه تزوج بالفعل قبل أن ينقضي العام، وأراد أن يعدل مع امرأته الثانية فرزق منها اثني عشر طفلا كذلك. وكان «دوراند» رجلاً غير عادي. وعندما قبلت اثنتان من بناته الزواج بشابين من الأسر المحلية في «لويزيانا» توقع السكان المحليون أن يروا مظاهر البذخ في حفل الزفاف المزدوج، فأرسل عبيده إلى الغابات القريبة ليصطادوا عناكب كبيرة. وأطلق هذه العناكب قبل الزفاف بأيام قليلة في طريق يؤدي إلى القصر تحف به الأشجار من جانبيه. وسرعان ما تحولت الأشجار إلى شبكة من النسيج المثقب. وفي صباح يوم الزفاف خرج العبيد ومعهم منافخ كبيرة وسحوق من الذهب والفضة راحوا ينثرونه فوق نسيج العنكبوت، وبذلك تحول الطريق إلى مظلة ذات غطاء متلألئ فوق رؤوس المحتفلين بالزواج.

– وهل هذا معقول؟ قالتها وهي تضحك في شيء من عدم التصديق. وأضافت:

– لكن ماذا كان يحدث لو أمطرت الدنيا وعصفت الرياح؟!

– لقد اتخذ السيد «دوراند» الترتيبات الخاصة بزواج ابنتيه في يوم يعتقد أنه غالبا لا يكون ماطرًا وتسكن الرياح فيه قال ذلك ثم سألها في رقة:

– هل تعلمين أن الساعة قد تجاوزت الثالثة بل قاربت الرابعة؟ والتفتت نحوه في دهشة بينما أحست بشيء من الحرج والارتباك. لم تكن تتخيل أن الوقت قد مضى بمثل تلك السرعة، وتعثرت وهي تبحث عن الكلمات:

– من الأفضل.. أن.. أن أذ.. أذهب. وراحت تنفض الجونلة في شيء من العصبية وهي تحاول أن تخفي وجهها عن عينيه اللتين كانتا تستمتعان بما

www.RewityBook.com

يحدث. وحاولت أن تسلك طريقها إلى السيارة، لكنه أمسك بمعصمها وقهقه ضاحكًا وهو يجذبها إليه وقال:

– لا يضايقني أن تبقي معي طوال الليل. لكنني لا أود أن تضعني «جوزفين» في القائمة السوداء. وزاد ارتباكها عن ذي قبل وقالت:

– أعرف أنها تنتظر عودتي لتناول العشاء معًا. وأكملت:

– إنني مسرورة لكونك ذكرتني بمرور الوقت.

– حقا؟! وشبّك أصابعه في أصابعها وهو يقول:

– دعيني أرافقك إلى السيارة. وعندما اطمأن «ستيف كاميرون» بعد ذلك بدقائق، إلى أنها قد جلست في سلام خلف عجلة القيادة في «الفولكس واغن» الحمراء، انحنى نحوها وعانقها قائلاً:

– لك أن تصدقيني هذه المرة إذا ما قلت لك: إلى اللقاء يا «جولي»! ونطق كلمتي «إلى اللقاء» بالفرنسية.. رجع «ستيف» إلى البوابة حيث كان كلب الرعي الألماني جالسًا وقد ارتفعت أذناه بينما كانت عيناه تراقبان ما يحدث. ورفعت «جولي» يدها محيية، ورجعت بالسيارة إلى الوراء في المدخل الترابي. وعندما أخذت وجهتها على الطريق الرئيسي أدركت أن «ستيف» لم يذكر شيئا عن اللقاء التالي بينهما، لكن الدفء الذي كان يحيط بقلبها كان يعكس قوله إنه لابد من أنه سيراها.

– عندما دخلت منزل «لوبلان» بدأت تحس بصدى مقابلتها مع «ستيف كاميرون» المعروف باسم «إيتيان». وبدأت السيدة «لوبلان» باستفسارها عن مدى استمتاعها بفترة ما بعد الظهيرة مع «إيتيان». أما «جي» فوقف في المدخل يراقب في اكتئاب ردود فعل «جولي» على تلك الزيارة. وحاولت أن تخفف من ابتهاجها وهي تقول إن المعبد هو «كاميرون هول» الذي تبحث عنه. وظنت السيدة «لوبلان» أن تأخرها هناك كان لذلك السبب وانتهزت

أول فرصة لتصعد إلى حجرتها فتستعيد نشاطها. وتبعها «جي» إلى الدرج وهو يقول:

– لكن لم تذكري شيئًا عن انطباعاتك عن الفارس «ستيف كاميرون»؟ وازدادت قبضتها على مسند الدرج قبل أن تأخذ أنفاسها. وقالت:

– كان في وسعك أن تحدثني عن وسامته الجذابة. ثم إن «ستيف» و «إيتيان» شخص واحد. كنت أظن أنني سألتقي برجل فرنسي كبير في السن.

– وهل حدث لك ذلك؟

– حدث لي ماذا؟

– هل أسرتك وسامته؟ وأجابت في غموض:

– لقد صدمت. ولم أدرك في أول الأمر أنه «ستيف» الذي حدثتني عنه، بل لم أكن أعرف أن «ستيف» في الفرنسية تعني «إيتيان». كان «جي» ينظر إليها بطريقة تثير فيها بعض الارتباك. فقد بدا وكأنه يرى آثار العناق في أحاسيسها. وأضاف يسألها وهي تتجه إلى أعلى الدرج:

– هل كنت على صواب فيما حدثتك عنه؟ وأحست بشيء من الضيق لسؤاله المتطفل، واستدارت لتواجهه:

– ماذا تريد يا «جي»؟ أتريد أن تستكشف ما إذا كان قد حاول إغوائي؟ وهمهم «جي» وهو يضرب الحاجز الخشبي بقبضته:

– لم أشك لحظة في أن رجلاً آخر يستطيع أن يفعل بك ذلك. وتنهدت في غضب، وقالت:

– أوه.. هكذا يا «جي» هل تصدق حقًا ما قلته الآن؟

– كلا، فإن «ستيف» من الذكاء بحيث لا يجازف في الكشف عن نيته في المرة الأولى، ولكنني على ثقة بأنه لابد من أن يكون قد أسر بجمالك.

– لقد نشأت في مزرعة، وأعرف قدرًا لا بأس به عن الطيور الوديعة وعن

النمل الذي يلسع. وبعد ثلاث سنوات قضيتها في الكلية أستطيع أن أتصرف في موقف أو آخر دون أن يؤثر فيَّ عناق عابر. كانت تلك أكذوبة صريحة ولكن «جولي» كانت في حالة من الغضب جعلتها لا تكترث. وابتسم «جي» ابتسامة تعكس السخرية والاعتداد بالنفس قائلاً:

– إذن فقد كنت على صواب. بدأ الحصار بالفعل.

– ولكن خطوطي الدفاعية لم تنكسر. ولن تنكسر وخرج صوته فيما يشبه الرجاء، وهو يقول:

– اسمعي يا «جولي»، إنني أحاول فقط أن أحذرك حتى لا يلحق بك الضرر. لقد رأيت «ستيف» يغوي الفتيات من قبل. إنه يلجأ إلى المغازلة بعينيه الواسعتين الزرقاوين، ويبتسم حتى تنهار الفتاة أمام نظراته. ولم تفت «جولي» فرصة السخرية منه، وقالت:

– كنت أظن أن من يفعل ذلك هو أنت. وتنشقت أنفاسها بعمق، وقالت:

– أفهم ما تحاول أن توضحه، ولكنني راشدة وأستطيع أن أكوّن وجهة نظري وأصدر أحكامي. وكل ما خرجت به أن «ستيف» شخص جذاب. ولم تعط لـ«جي» فرصة الرد، والتفت وصعدت الدرج في سرعة. ولكنه كان مصرًا على أن تكون كلمته الأخيرة:

– وكذلك ثعبان الكوبرا!

* * * * *

لم يبذل «ستيف» أية محاولة للاتصال بها يوم الجمعة التالي. وأحست بشيء من الاحتقار لنفسها وهي تتسكع في «سانت مارتنفيل» في ذلك اليوم ثم تعود إلى بيت «لوبلان» بين وقت وآخر على أمل أن يكون «ستيف» قد اتصل بها على الرغم من أنها لم تسأل صراحة عمّا إذا كان قد ترك رسالة خاصة أم لا. ولم تكن واثقة بمدى إعجابه بها إلى الدرجة التي تجعله يفعل ذلك. كان كل

ما تحرص عليه هو أن تهيئ نفسها لتلبي الدعوة.

وأشرق صباح السبت، وكان كل أمل لديها في أن يتصل بها قد اختفى مع ظلمة الليل السابق. كانت تحاول أن تقنع نفسها بأن ما ذكره «جي» عنه كان غير حقيقي. وعلى الرغم من ذلك بقي هذا الخاطر يلح عليها في صورة شكوك تودي بأوهام السعادة التي تحلم بها. وعندما اقترح «جي» أن يمضيا اليوم معًا قبلت «جولي» اقتراحه في بهجة. ولحسن حظها كان هناك جمع من أصدقاء «جي» ولم تكن هناك فرصة ليطرح من جديد أسئلة حول زيارتها لـ «ستيف». كان البرنامج يتضمن جولات عدة في لعبة التنس يتبعها قضاء فترة ما بعد الظهيرة إلى جوار حوض السباحة. وكان للمجهود الجسدي وللاسترخاء الذي تبعه تحت أشعة الشمس الدافئة أثر كبير في إزالة التوتر عن «جولي». وعندما عادت إلى منزل أسرة «لوبلان» في وقت متأخر من ذلك المساء كانت تحس بالانتعاش الكامل. لم تحاول تغيير رداء البحر البكيني بزهوره الحمراء، وأقنعت نفسها بأن البلوزة الحمراء ذات الكمّين الطويلين كانت تكفي لتغطية الأجزاء التي يكشف عنها رداء البحر.

كانت الأسرة كلها تبدو في حالة من المرح، وكان من الطبيعي أن تشارك «جولي» في ذلك. وأسرعت «ميشيل» إلى الطابق العلوي لتأخذ حمامًا وتستعد للقاء بـ «أوجين». وتلقّى السيد «لوبلان» مكالمة هاتفية بينما انشغلت السيدة «لوبلان» بإعداد العشاء، وذهب «جي» يبحث عن إحدى الصحف ليطلع على البرامج الاستعراضية التي كانت تعرض في «لافاييت» لعله يختار هو و «جولي» البرنامج الذي يريدان مشاهدته تلك الأمسية. وبقيت «جولي» وحدها في الحجرة التي كانت تعج منذ دقائق قليلة بأصوات البهجة. وكانت «جولي» الوحيدة التي رأت سيارة تصعد على ممر السيارات ثم تتوقف قرب الباب الخلفي. وشدها حب الاستطلاع التافه إلى النافذة لترى من القادم

www.rewity.com

الجديد. ورأت فتاة في بنطلون أبيض ضيق وبلوزة حمراء تكشف عن جزء كبير من صدرها، تخرج من مقعد السائق مسرعة وعلى رأسها عصابة صفراء منقوشة بالزهور تضم الكتل الطويلة من الشعر الأسود بعيدًا عن وجهها لتجعله يتهدل كالشلال على ظهرها. وتحركت الفتاة برشاقة ماكرة تجاه مؤخرة السيارة وشفتاها الحمراوان تتحركان في سعادة غامرة، ولم يكن صوتها مسموعًا. – وشحب وجه «جولي» عندما خرج من الجانب المقابل من السيارة «ستيف» وسار هو الآخر باتجاه مؤخرة السيارة. وثارت الذكريات. كانت «كلودين» آتية إلى البيت وهي التي تعتبر «ستيف كاميرون» ملكًا خاصًا بها. وكان «ستيف» معها يخرج الحقائب والأمتعة من مؤخرة السيارة. ووقفت «جولي» تراقب تبادل الابتسامات وهي تحس بالخيانة بينما «كلودين» تنظم الحقائب والأمتعة. وبدا «ستيف» وكأنه الصبي المكلف بحمل الأمتعة في الفندق ينقل بعضها في يديه وبعضها تحت ذراعيه.

كانت «جولي» على استعداد لترك النافذة، ولكن المشهد لم يكن قد اكتمل بعد. ورأت «كلودين» تتحرك لتقف أقرب إلى «ستيف»، وأحست «جولي» بشيء من الغثيان المؤلم تحرك في داخلها بعنف ولم تر أكثر، فقد حجبت الدموع عينيها. وتركت النافذة على عجل، وجففت عينيها بمؤخرة راحة يدها. وقررت ألا تتيح له الفرصة ليراها وهي تبكي. وحمدت الله أنه أتاح لها الفرصة لرؤية ذلك المشهد، فلم يعد هناك أدنى شك في أن آمالها كانت بلهاء.

وأسرعت إلى الردهة حتى لا تكن الشخص الوحيد في الحجرة عندما تدخل «كلودين» ومعها «ستيف»، ووجدت «جي» في غرفة الطعام منحنيًا على الصحيفة، وتظاهرت بشيء مناقض تمامًا لما كان يعتمل في داخلها. وسألته:

– هل وجدت شيئًا مثيرًا؟

– تعالي وانظري، لعل شيئًا يثير اهتمامك. كانت «جولي» تتفحص الصحيفة باهتمام عندما سمعا صوت ضحك، وأبوابًا تفتح معلنة وصول «كلودين» و«ستيف»، وتنهد «جي» ونظر إلى «جولي» في استسلام قائلاً:

– عادت ملكة النحل إلى الخلية. وأخذ يد «جولي» على مضض كبير ليتجه بها إلى الردهة. وعلى الرغم من أن «جي» لم يُبد حماسة واضحة، فإن حماسة والديه كانت وافرة وهما يرحبان بعودة ابنتهما. ووقف «جي» و «جولي» إلى الخلف ينتظران حتى تنتهي دهشة اللقاء. وأحست «جولي» بالارتياح؛ لأنها كسبت بضع دقائق قبل أن تقف أمام «ستيف» وجها لوجه. وكان «جي» قد أحكم قبضة يده على يدها، وجذبها لتلتصق به في اللحظة التي لمح فيها «ستيف». وأحست «جولي» بارتياح كبير لذلك.

كانت «جولي» على ثقة كبيرة بأنهما لم يحدثا ما يثير الاهتمام. ومع ذلك التفت «ستيف» وراءه وكأنه استفاد من حاسة سادسة لديه. وبدا وجهه بلا انفعال على الرغم من أنه كان يخفي بعض الفكاهة تكمن في أعماق عينيه الزرقاوين في اخضرار، وهو يحدق باتجاه يد «جولي» التي أمسك بها «جي» بإحكام. وسرعان ما طغت على وجهها ومضة من الخجل لم تكن تريد أن تبوح بها، ولكنها على الرغم من ذلك استجابت لنظراته بالجرأة وكأنها تتحداه أن يعلق، ولكنه فضل أن يترك عينيه تتفحصان زيها الرقيق مما حملها على الإحساس بأنها شبه عارية. وقبل أن تجد «جولي» الفرصة لتعبر عن ضيقها بالطريقة التي كانت عينا «ستيف» تحدقان بها نحوها، جاء «إميل لوبلان» يحييه بالفرنسية. واستمر الحديث بينهما بعض الوقت باللغة ذاتها.

– هل هذه فتاتك الجديدة يا «جي»؟ كان للسؤال وقع حاد جعل «جولي»

www.rewity.com

تحول نظراتها بقسوة من «ستيف» إلى الفتاة التي تواجهها. كانت عيناها بلونهما البني الشديد القتامة تتفحصانها باحتقار زائد. وكانت ثقة «جولي» بنفسها قد انكمشت عندما نظرت إلى «كلودين» ذات الجمال الأخاذ. كانت لها نظرات ساحرة وملامحها خالية من أي عيب كأنها صنعت من العاج، في تباين مع شعرها الأسود وحاجبيها الأسودين ورموشها الطويلة التي لم يكن لمواد التجميل أثر في جمالها الطبيعي. وكان قرطان ذهبيان كبيران يتدليان من أذنيها الصغيرتين ليضفيا عليها مظهرًا غريبًا كمظهر الغجر. وبدت «كلودين» وكأنها نبات استوائي له أزهار وأشكال ساحرة، بينما بدت «جولي» وكأنها زهرة من أزهار الربيع تنتصب إلى جوارها.

وسمعت «جي» يشرح بشكل عام ظروف وجودها كضيفة دون أن يذكر أنها كانت تدفع ثمن إقامتها. وعلى الرغم من أنه كان يحاول أن يضفي أهمية خاصة على شخصيتها، فإنه لم يشبع إحساسها بذاتها. وزاد من صعوبة الموقف أن «كلودين» تركت «جولي» وانصرفت عنها كما لو كانت لا تستحق اهتمامها، متجهة إلى «ستيف» مما جعل «جولي» تشد بقوة على يد «جي» الذي نظر إليها في رفق واعتذار. وهمست قائلة:

– سوف أنصرف لتغيير ملابسي. وكانت قد لمحت بزاوية عينيها كيف كان «ستيف» ينصت إلى «كلودين» في اهتمام كامل. وقال «جي» في هدوء وحزم:

– سوف نتناول الطعام في مكان ما. ولم تستطع «جولي» أن تمنع ابتسامة الرضا التي ارتسمت على فمها بينما بدأت «كلودين» توجه اهتمامها فجأة إليها وقد أحست بعزمها على الخروج وقالت:

– هل تخرجان معًا إلى مكان ما؟ ولكن «جولي» تركت لـ «غي» أن يوضح الموقف. وتخلصت من نظرة «ستيف» التي كانت منصبة عليها.

- 8 -

عندما عاد «جي» و «جولي» في ساعة متأخرة من تلك الأمسية، كان السكون يخيم على المنزل، ولم يكن هناك سبيل لاكتشاف ما إذا كانت «كلودين» في البيت أم خرجت مع «ستيف». ولم تكن «جولي» عازمة على التحدث إلى «جي» بما يدور في تفكيرها. وبعد أداء الصلاة في الكنيسة صباح الأحد، أعد «جي» رحلة تشارك فيها «ميشيل» وصديقها ليذهب الأربعة في السيارة إلى المنطقة الشهيرة التي تنسب إلى القرصان «جان لافاييت»، وهي جزيرة صغيرة تقع في خليج «باراتيريا». وكانت «كلودين» ما تزال في الفراش ولم يكن ثمة مجال لاصطحابها في الرحلة.

وفضلت «جولي» صباح الاثنين أن تذهب إلى مكان بعيد. واختارت رحلة إلى «باتون روج». وسلكت طريقًا عامًا رئيسيًا يقوم على أعمدة من الأسمنت المسلح عابرًا مساحة تمتد نحو اثنين وثلاثين كيلومترًا من المستنقعات. وفي خلال عودتها إلى بيت «لوبلان» تلك الأمسية، لم تكن «كلودين» بين الموجودين في البيت، ولكنها لم تسأل عن مكانها وظنت أنها ربما تكون مع «ستيف».

كان النوم قد خانها معظم الليل، لذلك استيقظت متأخرة في الصباح التالي، وكادت تتراجع عن الدخول إلى المطبخ عندما رأت «كلودين» جالسة مع أمها إلى المائدة. ولكنها تصرفت بشكل طبيعي وصبت فنجانًا من القهوة وجلست معها إلى المائدة وهي تتظاهر بأنها لا تكترث لشيء.

وابتسمت ابتسامة مشرقة لـ «كلودين» وللسيدة «لوبلان». وقالت:

– صباح الخير. واكتفت الأولى بالنظر إليها بينما ردت السيدة «لوبلان» التحية وقالت:

– أين تذهبين اليوم يا «جولي»؟ لقد كنت أحدث «كلودين» كي ترافقك

في جولتك اليوم. وأجابت على عجل، وقد لاحظت ضيقًا على وجه «كلودين»:

– لا داعي لذلك. كنت أفكر في الذهاب إلى جزيرة «جيفرسون» لمشاهدة الحدائق هناك، ولكنني أحس بشيء من التراخي يمنعني من ذلك اليوم. ولا أريد أن أفسد على «كلودين» برنامجها.

– كنت أفكر في الذهاب إلى الريف اليوم لأرسم بعضًا من مستعمرة «ستيف» بالألوان المائية. وكانت الابتسامة الغامضة التي ومضت على الشفتين القرمزيتين تقول بوضوح تام إن «كلودين» كانت لديها أمور أكثر أهمية يجب أن تقوم بها، بل هي أهم بكثير من اصطحاب «جولي» والعمل كمرشدة لها، في حين خطر لـ «جولي» في شيء من الحقد أن «كلودين» قد تمضي بعض الوقت في بيت «ستيف». وعلقت «جولي» في شيء من الإطراء بعدما حبست البرود الذي كانت تود أن ترد به، وقالت:

– لقد رأيت بعض لوحاتك وفي رأيي أنها جميلة تمامًا. وابتسمت «كلودين» في عذوبة للمرة الثانية قائلة:

– إن معظمها معد للتوزيع بسعر مقبول في السوق. وقليلون هم الذين يهتمون بالأعمال الفنية الحقيقية. وقليلون كذلك الذين يفهمونها. وأحست «جولي» أن موقفها كشخص عادي يقدر العمل الفني، واكتفت بأن تحتسي قهوتها وهي تبتسم. وقالت السيدة «لوبلان» بطريقتها في الثرثرة:

– هل قلت لك يا «كلودين» إن «جولي» اكتشفت أن مستعمرة «إيتيان» كانت في يوم من الأيام ملكًا لإحدى جداتها؟

– لا. لم تذكري لي شيئًا عن ذلك. إنه أمر مثير! ونظرت بعينيها القاتمتين إلى «جولي» قائلة:

– وكيف اكتشفت ذلك؟ وأحست «جولي» أن عليها أن تقوم بالشرح في

روية، وقالت:

– في أحد أيام الأسبوع الماضي، الثلاثاء، كما أظن، دعاني السيد «كاميرون» إلى مشاهدة مستعمرته. ولقد جعلني أشاهد الأعمدة القائمة على الرافد، واسم «كاميرون» منقوش عليها، وكان «سلفي كاميرون»، وقد سميت هذه المستعمرة «كاميرون هول».

– هل كانت قريبتك أمريكية؟ كانت «جولي» تعرف أن الفرنسيين المقيمين في «لويزيانا» في فترة ما قبل الحرب الأهلية كانوا يعتبرون الأمريكيين برابرة غير متمدنين، ولم يكن يسمح لسكان الولايات الشمالية «اليانكي» بالانتقال إلى الجنوب إلا في أضيق الحدود، حتى ولو كانوا أصلاً من منطقة جنوب خط «ماسون»– «ديكسون». وكان في لهجة «كلودين» وهي تسأل شيء من الاستعلاء:

– الحق أنها كانت سليلة أسرة فرنسية عريقة في القدم تنحدر من عائلة «كريولي»، وكان أبوها «روبرت كاميرون» ابنًا لأحد المهاجرين الاسكتلنديين، قتل في الحرب الأهلية دفاعًا عن الجنوب. ولقد تزوجت أمها ثانية بعد الحرب بسنوات قليلة، وكان زوجها الثاني ضابطًا في الجيش الشمالي. وكانت «كاميرون هول» قد بيعت سدادًا للضرائب. وهمهمت «كلودين» في وهن:

– إنها قصة غاية في الإثارة. وعلقت السيدة «لوبلان» في ابتسام:

– إنها حقًا مصادفة أن تعود ملكية «كاميرون هول» إلى واحد من أسرة «كاميرون». وسحقت «كلودين» بقايا السيجارة في المنفضة وقالت:

– أنا شخصيًا كنت أتمنى ألا يشتري «ستيف» هذه المستعمرة. كان وضعه المادي سيتغير كثيرًا إلى الأحسن لو لم يشترها. واعترضت الأم قائلة:

– كيف تقولين ذلك؟ إنه مكان جميل! وعلقت «كلودين»:

www.rewity.com

– لن يستطيع إصلاحها إلا مصرف كبير مثل المصرف الوطني. هل لديك فكرة عن المبالغ المطلوبة لإصلاحها؟ كان بإمكان «ستيف» أن يحتفظ بشيء من الثروة لو أنه لم يهدر النقود في إصلاح ذلك المكان كي يجعله صالحا للسكن. ونفقات صيانة مثل هذا المكان لا تحتمل. وأحست «جولي» بشيء من الاستثارة لسماعها رأي «كلودين» في المستعمرات. واقترحت في هدوء:

– أعتقد أن بإمكانه جعلها مزارًا للسياح بعد أن يكمل ترميمها، وبذلك يستعيد بعض ما أنفقه عليها. وأجابت «كلودين» بطريقة لاذعة:

– ما أكثر المستعمرات القديمة في الجنوب! والمعبد أو «كاميرون هول»، أو أي اسم تريدين أن تسميها به لا تتفوق على العشرات غيرها في شيء. بل أقول إن مستعمرة «كاميرون هول» لا يمكن أن ينسب إليها أي معلم من المعالم التي تركها جيش الاتحاد وتجذب الزوار إليها. واحتفظت «جولي» بهدوء في صوتها وهي تقول:

– أعتقد أنك لابد من أن تقفي إلى جانب الرأي القائل بترميمها. ولمع خبث في عيني «كلودين» القاتمتين وقالت:

– أنا لست حريصة على أن أعيش الحياة التقليدية التي يعيشها الفنان ولا أريد أن أقبع في مرسم. إنني أريد بيتًا حديثًا أو شقة جميلة، فهي أفضل بكثير من مستعمرة لم يكتمل ترميمها وتنتشر فيها البرودة والرطوبة.

واعترضت السيدة «لوبلان» فرفعت يديها في الهواء، وقالت:

– إنها تتحدث هكذا دائمًا وتترك عقلها يتحكم في عواطفها. ونهضت «كلودين» عن المائدة، وحملت فنجانها الخالي إلى الحوض قائلة:

– إن قرص الأسبيرين يعالج الصداع يا أمي، لكن بالله، ما الذي يعالج وجع القلب؟ كانت «جولي» حريصة على أن تسمع الإجابة عن هذا السؤال الذي لم تكن «كلودين» تعرف له جوابًا. فقد تحتاج هي إلى العلاج إذا لم تستطع

أن تتخلص من ذكرى «ستيفن كاميرون» بسرعة. وما إن خرجت «كلودين» من المطبخ حتى انشغلت أمها بنشاط كبير، واحتست «جولي» قهوتها، وعادت إلى حجرتها محاولة أن تضع خطة لليوم الطويل المقبل عليها.

* * * * *

كانت الشمس تغرق الفراش، وقد نثرت أشعتها الذهبية على الجسد النائم. وأخذ طائر يردد صيحة اليقظة والصحو من خارج النافذة مما جعل «جولي» تتململ بعض الشيء. وراحت جفونها تنقبض في وهج الشمس الذي حاول أن يكتسح استغراقها في النوم، وأحست بعطر زهري يداعب أنفها لعلها تستيقظ. وتنهدت وحاولت أن تختلس النظر وبدأت تدنو من وسادتها التماسًا للدفء لحظات أخرى قليلة، ولكن تلك النظرات القصيرة جعلتها ترى شيئًا لم تكن تتوقع أن تراه.

وغضُن جبهتها خط واضح وهي تفتح عينيها في اتساع وتحدق في شك إلى الوسادة المجاورة لرأسها. كانت هناك وردة متفتحة تستقر على غطاء الوسادة الأبيض، وحمرتها القانية تتباين في حدة مع اللون الأبيض. وأخرجت يدها في تثاقل من أسفل الفراش وهي تتوقع أن تختفي الوردة من أمام عينيها. ولمست أصابعها الفرع الدقيق الذي يحملها، وأدركت أنها حقيقة. ونهضت من الفراش فجأة لتغرق أنفها في وريقاتها الأرجوانية الضاربة إلى الحمرة.

كان هناك خاطران يلحان عليها في آن واحد: حديث «ستيف» عن العادة القديمة لدى ملاك المستعمرات في إيقاظ الضيوف بعطر وردة، ودخول شخص غريب إلى الحجرة. وامتدت يدها تشد الأغطية التي كانت قد تدلت لتغطي البيجامة الرقيقة التي ترتديها. ولمحت شبحًا في المنطقة القريبة من النافذة. كان «ستيف» يتفحصها في صمت، وكانت يداه تضربان على فمه. وسقطت يداه إلى مسنديْ الكرسي، وهو ينهض على قدميه. وتنشقت أنفاسها، وهي

www.rewity.com

تحس بالحاجة الشديدة إلى التنفس. وسألته:

– كيف دخلت إلى هنا؟

– من الباب. كان يستند إلى عمود السرير، ولم يبد عليه أي شعور بتأنيب الضمير للطريقة التي كان ينظر بها إليها، ولا للموقف الحرج الذي كانت تعانيه. وقالت:

– كيف تدخل إلى هذا المكان؟ ماذا لو اكتشفت ذلك السيدة «الوبلان»؟

– إنها ليست هنا، ولقد وجدت ورقة تركتها لك في الطابق الأرضي، ويبدو أنها ستقضي فترة الصباح كلها في الخارج.

– لكن لماذا أنت هنا؟ كانت «جولي» قد بدأت تحس بالسخف شيئًا ما، وجذبت الأغطية حول رقبتها بإحدى يديها بينما أمسكت الوردة الحمراء باليد الأخرى. وأجاب:

– لقد أحسست بأنك تحاولين أن تتجنبيني.

– هذا تفكير خاطئ. ولم تستطع «جولي» أن تواجه عينيه.

– إنني سعيد لسماع ذلك. وشاعت في وجهها ابتسامة لها سحر آسر، وتابع يقول:

– إنك تبدين جذابة للغاية كأول شيء في الصباح. هل تعرفين ذلك؟ إن كل ما فيك رقيق. واحمرت خجلاً بشكل غامر، وهي لا تعرف كيف تجيب عن ذلك التعليق. ولم تُجْد ابتسامة «ستيف» الرقيقة العريضة في مساعدتها على الرد بل أحست بالغضب عندما وجدته يعتبر الموقف مضحكًا.

– والآن.. وقد اقتنعت بأنني لا أحاول أن أتجنبك، أرى أنه من الأفضل أن تترك غرفة نومي. وجعلته يلمس شيئًا من غضبها.

– لماذا؟ هل تخشين أن أتسلق إليك؟ وهمست قائلة:

– إنك لا تجرؤ على ذلك. واكتفى «ستيف» بابتسامة ومد يده إلى ردائها

المطوي على طرف السرير، وسار إلى جانب الفراش ليقترب منها. ووقف يرقبها ثواني طالت كأنها الأبدية. وأعطاها الرداء أخيرًا، وقال:

– سأسمح لك بخمس عشرة دقيقة لتلحقي بي إلى المطبخ وإلا رجعت مرة ثانية. وخرج «ستيف» من الغرفة في هدوء بينما كانت «جولي» تتحدث في سرعة وغضب. وتبعته إلى الطابق الأرضي فيما لم يزد على عشر دقائق. وكانت ما تزال غاضبة، لأنه كان شديد الثقة بأنها سوف تستجيب لرغبته. وحانقة على نفسها لأنها قد استجابت بالفعل لتلك الرغبة. وحاولت أن تواسي عاطفة اعتبارها لذاتها بأن قالت في شيء من التحدي وهي تدخل الحجرة:

– نعم، هأنا هنا.

– لقد صببت لك بعض القهوة. كانت عيناه الزرقاوان تحومان حولها في ألفة وتبديان الإعجاب بالبنطلون الأزرق والبلوزة المنقطة التي كانت تنسجم معه، ولكن «جولي» جعلت ملامحها تبدو وكأنها تجمدت رافضة أن تسمح لدفء نظراته بأن يذيب خطوطها الدفاعية. وكان ذلك أمرًا صعبًا، فقد كانت أعصابها تهتز لأدنى خفقة. وسألها «ستيف» وقد خشي أن يسود الصمت بينهما فترة طويلة:

– هل وجدت قماشا يعجبك؟ واصطنعت «جولي» غضبًا يعبر عن الاضطراب وقالت:

– قماش؟! وألمح يقول:

– لإعادة تغطية الأريكة والكراسي. وقالت كاذبة:

– لقد نسيت كل ما يتصل بذلك.

– حقًا؟! كان ذكاؤه الماكر قد دفع إلى وجنتيها خفقة من الدماء سرعان ما تقهقرت، وتابع يقول:

WWW.RWITY.COM

– أعتقد أن بإمكاننا أن نقوم معًا بالبحث اليوم. هذا إذا كنت ما زلت على استعداد للمعاونة. ورفعت «جولي» رأسها قليلاً لتقابل نظرته بكل البرود الذي تستطيع أن تتظاهر به وقالت:

– تستطيع «كلودين» أن تحسن اختيار القماش أفضل مني. لماذا لا تطلب منها أن تعاونك؟

– لقد طلبت منك أنت. وأجابت في حدة وسرعة قبل أن تقاوم رغبتها في السخرية منه:

– أعرف. ولكن ذلك كان قبل أن تعود «كلودين». وبدت على وجهه ابتسامة عكست بوضوح أنه كان يسخر منها وهو يقول:

– إن ما تحاولين قوله هو أنك لا تريدين أن تتعدي على أملاك الغير. أليس كذلك؟ وأجابت في حذر:

– شيء من ذلك.

– لكي أصحح لك الموقف، أقول إنني لست ملكًا لأحد. لقد تعارفنا، أنا و«كلودين»، منذ فترة طويلة. وهناك كثير من أوجه الاتفاق بيننا. ولكنني لا أؤثر في حياتها. والآن هل تريدين أن تمضي اليوم معي أم أنك مصرة على قيمك البيوريتانية (التطهرية) وتبقين وحدك؟

– لقد بدا أن «كلودين» ولهى بك. وقد تصرفت معها كما لو كنت معجبًا بها. وكان من الطبيعي أن أفترض أنكما متحابان، ولست وحدي أفكر بهذه الطريقة، فهكذا يعتقد «جي» و «ميشيل».

– أعتقد أنك تحمِّلين كلمات «ميشيل» أكثر مما تحتمل. أما عن «جي» فإنه يحاول أن يحمي جانبيه. ونهض واستدار حول المائدة، وتابع يقول:

– هيا.. لنخرج. واعترضت وهو يجذب كرسيها بعيدًا عن المائدة وقالت:

– لم أقل إنني سأخرج. وأمسك ذراعها وسار بها نحو الباب الخلفي وهو

يقول:

– بعد تلك الطريقة الخرقاء التي تصرفت بها فإن كبرياءك لن تسمح لك بأن تستسلمي، وعليّ أن أدفعك إلى اصطحابي. وابتسم، وهو ينظر إليها ابتسامة عريضة وتابع:

– ماذا يقول «جي» لو رأى تلك اللمسة المسيطرة أو اليد الحديدية في قفاز من الحرير؟ وعلقت «جولي» وهي تسمع الباب ينغلق خلفها:

– من المحتمل أن يسميها اختطافًا. وابتسم «ستيف» قائلاً:

– إذن سأجعلك تحت رحمتي طيلة النهار. وفتح باب سيارته الـ «ستيشن واغن» وساعد «جولي» على الركوب. وسألته في هدوء عندما جلس وراء عجلة القيادة:

– وهل ستكون...؟

– سأكون ماذا؟ وأجابت في صوت واهن:

– رحيمًا؟ وتوقف «ستيف» لحظة قبل أن يدير محرك السيارة، ونظر إليها في صمت كثيف ثم قال:

– إذا وعدت بألا تتركي هاتين العينين البنيتين الناعمتين تسحرانني. إنهما جديرتان بأن تفقدا أي رجل ما بقي لديه من الاتزان. والتفتت «جولي» بعيدا وهي حائرة فيما إذا كان يعرف مدى خطورة عينيه الزرقاوين القاتمتين، وإنها كم تمنت أن تغرق نفسها في أعماقهما. ومع ذلك كانت تشعر بشيء من الاستثارة، إذ اكتشفت أن فيها شيئًا يثير أرقه، لكن هل كان ذلك الشيء سلاحًا فعالاً أم مركزًا للهجوم؟ وهي تعلم أن خطوطها الدفاعية واهية. وعندما استدار «ستيف» بالسيارة نحو الاتجاه المضاد والمقابل لسوق مدينة «سانت مارتنفيل»، نظرت إليه «جولي» في استغراب، وقالت:

– إلى أين؟ وغض النظر عن الطريق لحظة لينظر إليها مطمئنًا وقائلاً:

www.rewity.com

– إلى «نيوإيبيريا». أعتقد أننا سنجد هناك تشكيلة أكبر من أقمشة التنجيد لنختار منها إلى جانب ما نتمتع به من مناظر جميلة. هل ذهبت إلى هناك من قبل؟ وأجابت وهي تذكر كيف كانت رحلتها السابقة ثقيلة بعد الحديث غير المريح مع «كلودين» في ذلك الصباح:

– لقد ذهبت إلى مستعمرة تسمى الأشباح على نهر «تشيه». كنت هناك بالأمس.

– وهل أعجبك المكان؟

– أوه، نعم! كان جميلاً للغاية وخاصة المروج الخضراء المطلة على الرافد. ولقد لاحظت كذلك أن واجهة المنزل تطل على الطريق لا على نهر «تشيه». وحاول «ستيف» أن يفسر ذلك فقال:

– ذلك، لأن القافلة الإسبانية كانت تمر من هناك مما جعلهم يعكسون النمط العادي. وسألها:

– وهل خرجت إلى جزيرة «آفري»؟ وهزت رأسها قائلة:

– لا.

– حسنًا. سوف نذهب بالسيارة إلى هناك بعد وجبة الظهيرة. وعاد يوجه انتباهه للطريق. ووجدت «جولي» نفسها تستند إلى مقعدها في قناعة ورضا. كانت تحس ببهجة عارمة وهي تجلس في مقعدها إلى جانب «ستيف» وتعلم أنها ستمضي النهار كله معه وتحت تصرفه. ولم يكن «ستيف» يعرف ماذا يعني لها الوقت الذي يقضيه معها. ووجدا في المتجر الثاني الذي دخلاه في «نيوإيبيريا» خامة القماش التي كانت «جولي» تريدها للأريكة والكراسي. كانت من المخمل الناعم الأخضر الفاتح، تنسجم تمامًا مع خشب الجوز القاتم. ولسوء الحظ لم تكن هناك كمية كافية لقطع الأثاث الثلاث. وأكد المشرف على المحل أن في وسعه أن يستحضر لهما ما يطلبانه من هذه

الخامة مع الطرود الآتية. وقالت «جولي» موجهة الكلام إلى «ستيف» بلهجة مطمئنة:

– أفضل أن ننتظر حتى يصل القماش الجديد، فمن المحتمل أن تختلف درجة اللون. ووافق «ستيف»، وقال:

– أنت على صواب. وصحب «ستيف» «جولي» إلى السيارة ثانية بعدما تأكدت أن الشحنة المقبلة من القماش ستصل في أقل من أسبوع. ونظر «ستيف» إلى ساعته الذهبية، وقال:

– لا زالت أمامنا ساعة حتى يحين موعد وجبة الظهيرة. لكن بما أنك لم تفطري، فلماذا لا نأكل الآن؟ واعترفت «جولي» قائلة:

– بدأت أحس بالجوع.

– إذا كنت تحبين الطعام المكسيكي، فإنني أعرف مطعمًا يقدم وجبة شهية من تلك الأطباق.

– فكرة عظيمة.

* * * * *

كان مطعم «رافييل» صغيرًا يقع في أحد الشوارع الجانبية، وبدت زخارفه من الداخل مزيجًا من البساطة والأناقة توحي بجو كلاسيكي. وما كادا يجلسان إلى إحدى الموائد حتى دخل إلى الصالة رجل داكن البشرة كبير السن. وما إن لمح «ستيف» حتى أشرق وجهه بابتسامة، وخطا نحوهما يتهلل قائلا:

– «إيستبان»! وأتبعها بفيض من الحديث بالإسبانية لم تستطع «جولي» أن تدرك مضمونة، واستطاعت أن تفهم أن كلمة «إيتيان» هي «إيستبان». وعرفت كذلك أن الرجل الذي بادرها بالتحية هو «رافييل» صاحب المطعم. وأدركت كذلك أن «ستيف» كان يتردد على مطعم «رافييل» كثيرًا. وقام «ستيف» بالتعريف قائلا:

www.rewity.com

– «رافييل».. هذه هي الآنسة «جولي سميث». إنها تمضي إجازتها هنا في «لويزيانا». والتفت إلى «جولي»:

– أود أن أقدم لك «رافاييل ألفاريز» وهو صديق حميم لي. ومدت يدها إلى الرجل الأكبر سنًا تقول:

– يوم طيب يا سيد «ألفاريز». قالتها بالإسبانية، وانحنى الرجل برشاقة على يدها وهو يقول:

– أوه.. هل تتكلمين الإسبانية يا آنسة؟ وأجابت «جولي»:

– إنها ليست سوى تحيات أهلاً وسهلاً.. وداعًا.. كيف حالك وابتسم السيد «ألفاريز» باكتئاب وقال:

– للأسف.. إنها لغة جميلة للمحبين. يجب أن يقوم «إيستبان» بتعليمك هذه اللغة. ونظر إلى «ستيف» الذي كان يرقبها في سرور، نظرة ذات معنى وهو يقول بالإسبانية:

– إنه أستاذ حاذق. وتدخل «ستيف» ليمنع التمادي في الملاحظات الشخصية وأخبر «رافييل» بالأصناف التي يفضلها للوجبة الخفيفة. ولم تهتم «جولي» كثيرًا بأن تختار شيئًا وتركت «ستيف» يختار لها بينما أخذت أفكارها تشرد. وعندما غادر «رافييل» المائدة قال «ستيف»:

– تبدين شاردة! ما الذي يضايقك؟

– كنت أخمن أنك تتكلم الفرنسية بطلاقة. والآن تتكلم الإسبانية!

– هل يدفعك حب الاستطلاع؟!

– نعم. أعرف الآن أنك تمتلك مستعمرة. لكن قبل ذلك لابد من أنك تعلمت تلك اللغات المختلفة قبل أن تأتي إلى هنا. إنني أحاول أن أتخيل: ماذا كان عملك السابق؟

– لقد عملت ضابطًا على سفينة شحن غير نظامية مدة أحد عشر عامًا.

– وماذا تعني سفينة الشحن غير النظامية؟

– إنها السفينة التي ليس لها مرفأ ثابت. فقد تحمل شحنة الحبوب من «نيوأورليانز» إلى «اليابان» مثلاً، ومن هناك قد تحمل شحنة إلى «الهند» وهكذا. وقد يمضي على السفينة عامان أو ثلاثة قبل أن تعود إلى الميناء نفسه.

– وهل هذا هو السر في أنك تعرف لغات عديدة؟

– الواقع أنني أتكلم أربع لغات إلى جانب الإنجليزية. إنها الإيطالية والألمانية فضلاً على الفرنسية والإسبانية. ونظرت إليه «جولي» باستغراب من خلال رموشها وهي تقول:

– قلت أحد عشر عامًا! لا بد من أنك كنت صغير السن للغاية!

– كان عمري سبعة عشر عامًا وكنت يتيمًا، ولم يكن لي أقارب من الدرجة الأولى أو الثانية. وشدتني حياة البحر المليئة بالمخاطر والشاعرية. كنت في ذلك الوقت أعيش في الشمال في «بوسطن»، وحلمت بالهرب إلى جزيرة في البحار الجنوبية. وترددت على أرصفة شحن السفن عدة أشهر قبل أن يرفق بي قبطان تلك السفينة غير النظامية ويقبل قيدي ضمن طاقم سفينته، وعاملني كأب ولم تكن له هو نفسه أسرة. وظللت أبحر معه حتى توفي منذ حوالي خمس سنوات.

– وكان ذلك هو التاريخ الذي قدمت فيه إلى هنا؟

– لقد عدت إلى «الولايات المتحدة»، وانتهى بي المطاف في «نيوأورليانز» حيث قابلت «كلودين». كنت قد مللت التجول على الرغم من أنني عشقت حياة البحر. وومضت عيناه نحوها عبر المائدة، وقال:

– هل تريدين أن تسمعي المزيد عن الماضي السيئ؟!

– حسنًا! لقد أغفلت ذكر الفتيات اللائي تعرفت إليهن في الموانئ المختلفة.

www.RewityBooks

وظهرت على وجهها ابتسامة تعذبه بإثارة رغبة فيه لا تعتزم إشباعها. وواصلت:

– لابد من أنك خلفت وراءك صفًا من القلوب المنكسرة يمتد من أقصى الأرض إلى أقصاها.

– لن أحدثك عن النساء اللاتي كنت أقابلهن من فئات لا تعرف معنى انكسار القلب. على أن النساء المحترمات لا يترددن على الأماكن التي يقصدها البحارة للمتعة. وابتسمت «جولي» في إشراق عندما اقترب النادل ومعه الطعام وقالت:

– لقد كنت على صواب إلى حد ما عندما شبهتك بالقرصان. وقال مازحًا:

– أنت أولى بالقرط الذهبي مني. ولابد من أن أتذكر فأعطيك إياه. سوف يبدو عليك أكثر رونقا.

– لا أعرف. وعلى أي حال، فإن الفتاة لا تلبس قرطًا واحدًا في إحدى أذنيها، والأفضل أن تحتفظ به كتذكار. وسألها «ستيف» في هدوء:

– ألا تريدين تذكارًا عن الوقت الذي نقضيه معًا؟ وأخذها السؤال على غرة، فأجابت في حدة:

– لا. كانت تعرف تمامًا أن ذكرياتها مع «ستيف» ستظل حية دون تذكار. وحاولت أن تبدل حدتها إلى مرح، ولكن ذلك لم يخل من زيف وعصبية. وقالت:

– أرجو أن تحتفظ به لفتاة أخرى قد تبدو في زي أكثر جمالاً مثل زي الغجر. وهز «ستيف» كتفيه في شيء من عدم الاكتراث، وركز في الطعام وهو يقول:

– قولي ما يحلو لك.

- 9 -

كان المساء حالك السواد عندما استأنف «ستيف» و «جولي» رحلة العودة بالسيارة. وظهرت في المساء نجوم قليلة، ولم يكن للقمر أي أثر على الرغم من أن «جولي» كانت تقول إنه لابد أن يكون هناك في مكان ما. وتجمعت قطع ضئيلة من الضباب على هيئة سحب رمادية فوق المستنقعات الممتدة على طول الطريق، لتنسج بين الحين والآخر ستارًا يشبه نسيج العنكبوت يطفو في الجو، ليجري ملتفًا كالدوامة أمام السيارات المارة وكأنه ضباب راقص. وكان ذلك بالنسبة إلى «جولي» جزءًا من سحر اللحظة الأثيرية التي تعيشها وهي إلى جانب «ستيف». وما أسرع ما مضى من الوقت، فقد توقف «ستيف» بسيارته عند المنعطف المواجه لبيت آل «لوبلان»، ولم ينطق أيهما بكلمة بعدما أوقف محرك السيارة. لم تكن «جولي» في عجلة من أمرها لتسرع بالدخول، ولم يكن «ستيف» في الوقت نفسه يستحثها على ذلك. وأشعل سيجارة، وبدا وجهه في ضوء عود الثقاب وقد برزت ملامحه بروزًا حادًا، وامتد الصمت بينهما وجاء صوت صرصار الليل من الخارج يتردد على مسمعهما، وأخذت تحدق إلى وجه «ستيف» الذي اعتلته بعض القتامة. وتمتم «ستيف» في شيء من العصبية، وقال:

– شيء لا يطاق. ونفض السيجارة من النافذة بحركة مضطربة والتفت نحو «جولي»، فهمست وهي لا تدري ما إذا كان قد صدر عنها ما أثار غضبه. وقالت:

– ماذا يضايقك؟ وامتدت يده لتستدير حول رقبتها في قبضة مؤلمة، وقال:

– أنت.. لم يحدث أن قيل لي قبل ذلك إن.. ولم تتح لها الفرصة لتنصت إلى ما كان ينوي قوله؛ إذ سارع إلى عناقها فيما كانت يده تضغط عليها بقوة

في مقعدها بحيث لم تستطع أن تقترب منه، ثم قال:

– لا أريدك أن تدخلي. وأجابت وصوتها يضطرم بالانفعال الذي أثاره فيها:

– لا أريد أنا أيضًا ذلك. وحدق إليها من خلال الظلمة التي تغمر السيارة:

– إنك لا تدركين ما تقولين. من الأفضل أن تدخلي الآن. وأضاف مؤكدًا:

– سوف.. سوف أتصل بك غدًا. وفتحت باب السيارة. وأنار الضوء الداخلي آليًا. وحدقت إليه قبل أن تخرج، ولمحت الرغبة في عينيه وهما تنظران إليها. وكادت تغلق الباب من جديد لتستقر بين ذراعيه، لكن العقل والحذر سيطرا عليها، وانسلت من السيارة واتجهت إلى البيت بسرعة.

* * * * *

كان البيت هادئًا فيما عدا صوت موسيقى مكتومة آتية من جهاز تسجيل في حجرة المعيشة، فعرفت أن شخصًا آخر كان هناك. ولم تكن «جولي» تود أن تقابل أيا من أفراد الأسرة حتى لا تضطر إلى إعادة سرد أحداث اليوم. كانت تريد أن تحتفظ لنفسها بنكهة تلك اللحظات فترة أطول. ولذلك تسللت صاعدة الدرج إلى حجرتها. وتركت باب الحجرة مفتوحًا، واجتازت لتضيء المصباح الأرضي. وعندما قفلت راجعة لتغلق باب الحجرة رأت «كلودين» تقف عند المدخل. كان شعرها الأسود يتهدل على كتفيها، وكانت تلبس قميص نوم لونه أخضر في زرقة غريبة ذكّر «جولي» بريش الطاووس، وبرز من تحته قميص قصير ينسجم معه. ونظرت إلى «جولي» تقول:

– لقد رجعت إذن! هل استمتعت بنزهة قصيرة مع «ستيف»؟ وأجابت «جولي» في هدوء وهي تحاول ألا تتيح الفرصة أمام «كلودين» للاستمرار في التحدي:

– لقد أمضينا معًا وقتا سعيدًا للغاية.

– لابد من أنك جعلته يخضع لمشيئتك في التجول في تلك المناطق السياحية.

– الحقيقة أن «ستيف» اقترح أن أزور جزيرة «آفري» فذهبنا إلى هناك بناء على اقتراحه.

– سبق له أن زار «آفري» مرات عديدة. إنها لمعجزة أنه لم يضجر من هذه الزيارة بشكل يفقده صوابه. وأجابت «جولي» وابتسامة خفيفة على وجهها أشعلت نار الغضب في عيني «كلودين» القاتمتين:

– لا أعتقد أنه ضجر على الإطلاق. واستدارت «جولي» تلتقط فرشاة شعرها وهي تأمل أن تفهم «كلودين» من خلال ذلك أنها لا تريد الاستمرار في هذا الحوار. ولكن «كلودين» تشدقت من خلفها قائلة:

– أرجو ألا تحسبي أنه يهتم بك بالفعل. فأنت فتاة تنقصها الخبرة وربما تجلبين لنفسك الضرر.

– أعتقد أنني في سن تتيح لي أن أعرف كيف أحافظ على نفسي.

– رجولته يمكن أن تصبح مسيطرة. وقد وقعت في حبائله من قبل نساء أكثر نضجًا منك. ونظرت «جولي» في سذاجة إلى «كلودين»، وقالت:

– وهل كنت أنت واحدة منهن؟

– إنني أكثر من غيري خبرة واحتمالاً، وأعتقد أنك تضعين نفسك في موقف لم تنضجي له بعد.

– هذه مشكلتي أنا. أليس كذلك؟ وأجابت «كلودين» في حدّة:

– بالتأكيد. كنت أحاول أن أقدم إليك نصيحة ودية صغيرة، لكن إذا كنت تفكرين في قضاء وقت سعيد من إجازتك دون أن تتورطي فاستمتعي بوقتك ولن تجدي أفضل من «ستيف» ليحقق لك ذلك، لكن تأكدي أنه لن يقبل الارتباط أبعد من ذلك. وعلقت «جولي»:

– أعتقد أن ذلك سبب لك شيئًا من الكدر. وبدا الغضب المكبوت على وجه

«كلودين» وقالت:

– «ستيف» رجل ككل الرجال، ويجد في رفقتي ما يشبع تطلعاته. وعلقت «جولي» للمرة الثانية:

– تستطيع أي امرأة أن تفعل ذلك. كان الحديث بينهما قد تطور بشكل سريع انكشفت معه في وضوح كراهية «كلودين» لـ «جولي». وقالت في تحدٍّ:

– لنتكلم بصراحة. قد أجد في سذاجتك شيئًا من التسلية الآن. ولكن الأمر لن يستمر هكذا، فإما أن ينجح في غوايتك وعندئذ تفيقين على الحقيقة، أو أن يشعر بالملل منك وعندئذ يهجرك تمامًا. وأنت بالنسبة إليه لست سوى ذكرى عارضة، وسوف تدركين ذلك بنفسك. واستلت «جولي» مخالبها لترد قائلة:

– قد تكونين على صواب، لكن ألا يمكن أن يكون قد بدأ يحس فعلا بالضجر من البضاعة المستعملة، وقد يحتاج الآن إلى أن يجرب شيئًا جديدًا تمامًا، يستطيع أن يشكله بما يتمشى مع تطلعاته؟ وارتفعت يد «كلودين» مهددة وظنت «جولي» للحظة أنها أرادت أن تصفعها، ولكن «كلودين» تراجعت واتجهت نحو الباب، دون أن تغادر الحجرة. واستدارت نحو «جولي» لتقول في احتقار:

– إنك ترتكبين غلطة كبيرة. وغادرت الحجرة. وأخذت «جولي» تمعن التفكير، وحدثت نفسها: «لقد كسبت الجولة الأولى.. ولكنها الحرب الآن». كشفت «كلودين» النقاب عن مشاعرها، ولم يكن واردًا لدى «جولي» أن تتراجع أمام أي شخص. وكان اليوم رائعًا على الرغم ممّا يمكن أن يأتي به الغد من متاعب، ولم تكن تريد أن تشغل نفسها الليلة بما يمكن أن يحدث غدًا. وعندما وضعت رأسها على الوسادة كان كل ما تفكر فيه هو نشوة السعادة التي تحس بها وهي بين ذراعي «ستيف». ولم تكن تريد أن تترك

لسان «كلودين» اللاذع الحقود يؤرق أحلامها.

* * * * *

استيقظت «جولي» مبكرة في الصباح التالي، وارتدت ثوبًا أبيض اللون زاهيا تزينه بعض الأزهار البرتقالية والصفراء، وحذاء خفيفا برزت منه أصابع قدميها. واستخدمت بعض الماكياج البسيط، وألقت نظرة إلى المرآة فكانت راضية كل الرضا. وراحت تردد نغمة مرحة وهي تهبط الدرج إلى المطبخ. كان كل ما قاله «ستيف» إنه سوف يتصل بها اليوم، وإن لم يذكر شيئًا عن اعتزامه مرافقتها إلى مكان معين، ولم يذكر كذلك شيئًا عن الوقت الذي سيتصل فيه: هل هو الصباح؟ أم المساء؟ وكانت على استعداد للاستجابة لأي شيء. وجلست السيدة «لوبلان» و «ميشيل» و «جي» إلى مائدة الطعام الصغيرة بينما كان «إميل لوبلان» قد خرج. أما «كلودين» فلم تكن قد استيقظت بعد، ولم يؤثر ذلك في «جولي» إطلاقًا. وبدت السيدة «لوبلان» كعادتها مبتهجة، وكانت سعادة «جولي» الغامرة تتناسب تماما مع التحية المشرقة التي قابلتها بها. وأومأ «جي» إليها إيماءة مقتضبة بدا فيها شيء من الاكتئاب والاتهام. لكنها تجاهلته وراحت تصب لنفسها فنجانًا من القهوة، وجلست على الكرسي الشاغر عند نهاية المائدة. وعلقت «ميشيل»، وقد بدت في عينيها نظرة سليطة اتجهت إلى «جولي» ثم إلى أخيها، وهي تقول:

– لقد تسللت إلى فراشك الليلة الماضية دون أن تَقْضي علينا شيئا من مغامراتك بالأمس. وعلقت السيدة «لوبلان»:

– صحيح يا «جولي». حدّثينا أين أخذك «إيتيان»؟ وظل «جي» يحدق إلى فنجانه باكتئاب، وبدأت «جولي» تقول:

– لقد ذهبنا إلى جزيرة «آفري». وراحت تنقل إليهم انطباعاتها عما رأته وهي تتجنب أن تركز في الحديث عن الذي كان يرافقها. وتحمست السيدة

www.rewity.com

«لوبلان» في خلال الحديث، فقالت:

– ما أجمل هذه الحدائق في شهر آذار (مارس) عندما تزهر الأزاليا والكاميليا! عند ذاك تزيّن ألوانا عديدة وزهورًا كثيرة في كل مكان. وعلقت «جولي» قائلة:

– إن أجمل ما في حدائق الغابة أنه ليس من الضروري أن تكون الأزهار متفتحة لكي يستمتع الزائر بالمكان. وبالتأكيد، فهناك أزهار عديدة متفتحة مدى أشهر السنة. ولقد كنت حريصة على زيارتها مهما كلفني ذلك.

وابتسمت السيدة «لوبلان» وقالت:

– إنني لسعيدة بكون «إيتيان» قد اصطحبك إلى هناك. وقطع «جي» صمته الذي فرضه على نفسه، فقال:

– ولكن «كلودين» ليست كذلك. ونظرت السيدة «لوبلان» إلى ابنها في استغراب وقالت:

– لماذا تتضايق «كلودين» من ذلك؟ وهز «جي» رأسه في يأس قائلا:

– لا يعقل ألا تعرفي السبب! وردت السيدة «لوبلان» في تأكيد:

– إذا كنت تحاول أن تقول إن هناك شيئًا جادًا بين «إيتيان» و «كلودين» فأنت مخطئ. إنهما يعرفان بعضهما البعض منذ أمد بعيد. أربع سنوات أو خمس سنوات! ولقد كان هذا الوقت كافيًا لاستكشاف ما إذا كان ما بينهما يمكن أن يؤخذ بجدية أم لا. ألا ترى أن ما مضى من الوقت بين «إيتيان» و «كلودين» كاف لأن يعبر هو عن اعتزامه الاقتران بها؟ أعتقد أن ما بينهما ليس سوى صداقة لا أكثر. وابتسم «جي» ونظر إلى أمه في شيء من الأسف قائلاً:

– إنك تعتنقين أفكارًا محافظة للغاية. وأومأت قائلة:

– ربما، لكن عندما يضع الرجل خاتم الزواج حول أصبع المرأة فذلك يدل

على أنه جادّ. أما قبل ذلك فهو شيء من العبث. أعتقد أن ما يضايقك هو كون «جولي» هي التي كانت مع «إيتيان». وكنت تود أن تكون أنت من أمضى اليوم مع «جولي». وعلق «جي» قائلا:

– ربما تكونين على صواب في ذلك. كانت السيدة «لوبلان» على استعداد لمتابعة الحديث في هذا الموضوع. ولحسن الحظ دق جرس الهاتف في الصالة، فأسرع نبض قلب «جولي» توقعًا لما قد تأتي به المكالمة. ونهض «جي» عن المائدة قبل أن تجد أيّ منهن الفرصة للإجابة. وقال:

– سأرد أنا على المكالمة. ونظرت «ميشيل» إلى ساعة الحائط، وتنهدت قائلة:

– أرجو أن يكون المتحدث ناظر المدرسة فيبلغني أن ماسورة المياه قد انكسرت وأن المدرسة غارقة في المياه. إنني لا أريد أن أرى هؤلاء الأطفال اليوم. قالت ذلك وهي تجمع أوراقها استعدادًا للخروج، وواصلت:

– أعتقد أن المعلمين يتطلعون إلى نهاية الأسبوع بشوق أكثر مما يتطلع إليها التلاميذ. وجاء صوت «جي» معلنًا:

– «جولي»، المخابرة لك. وتمتمت معتذرة وهي تغادر المائدة. وأمسكت السماعة قائلة:

– آلو. وكانت تعرف أن المتحدث لن يكون سوى «ستيف». وأجاب «ستيف»:

– صباح الخير. هل نمت جيدًا الليلة الماضية؟ وضحكت في عصبية وقالت:

– لم أدر بنفسي إطلاقًا.

– هذا حسن. أما أنا فلم تغمض لي عين.

– آسفة لذلك.

– حقًا؟! ولكن هذا لا يساعد كثيرًا في العلاج. وأجابت «جولي»:

– أعرف ذلك. وتابع «ستيف»:

– لقد اتصلت بك لأخبرك بأنني مشغول اليوم، فقد تعطل أحد الجرارات الخاصة بالمزرعة أمس، ويجب أن أذهب إلى «لافاييت» لأشتري بعض قطع الغيار. وسوف أمضي جزءًا كبيرًا من النهار، وربما الليل، لكي أكمل إصلاحه. وعلقت «جولي» وهي تحاول أن تخفي ما أحست به من إحباط:

– على كل حال، لم تكن لدينا خطة محددة. ولم يكن بإمكانك أن تتنبأ أمس بما كان سيحدث للجرار اليوم. وجاء رد «ستيف» معبرًا في صدق عن أسفه:

– إنني أيضًا أحس بالأسف يا «جولي». فما خطتك اليوم في أثناء انشغالي بإصلاح الجرار؟ وأجابت في جرأة:

– سأجلس لأفكر فيك. وهمهم في قسوة وسخرية:

– إن أي تعليق آخر مثل هذا قد يجعلني أغير رأيي وأهمل الجرار..

– هل تعد بذلك؟ قالتها في جرأة، وواصلت:

– إنني أتراجع عما قلت. وعلى كل حال، فأنا ابنة مزارع وأفهم جيدًا أهمية إصلاح الجرار.

– شكرًا يا حبيبتي.. وإذن، ربما إلى الغد.

– نعم. إلى الغد. وبعدما أغلق الخط أعادت «جولي» السماعة إلى مكانها واستقرت يدها عليها لفترة قصيرة كما لو كانت بطريقة لاشعورية تطيل حديثها مع «ستيف». وسمعت صوت خطوات تقترب نحوها، واصطنعت ابتسامة على وجهها. والتفتت لتجد «جي» يحدق إليها وعيناه تعكسان شيئًا من الشك والضيق. وقال:

– في وسعنا أن نلعب بضعة أشواط من التنس عصر اليوم إذا كان لديك وقت يسمح بذلك.

– إنني على استعداد. قالتها في هدوء وهي تأمل أن تكفر عن ذنب كانت

تحس به إزاءه، ومع ذلك لم تكن تستطيع أن تنكر أنها وقعت بالفعل في حب «ستيف»، وأن «جي» لم يكن بالنسبة إليها أكثر من صديق. وشرع «جي» في الإجابة ثم توقف وأغلق فمه بإحكام، واتجه نحو الباب الأمامي وهو يومئ برأسه. وبدت «جولي» وكأنها لم تتأثر بالكآبة الواضحة على وجه «جي»، ولا بالخبر الذي سمعته من أنها لن ترى «ستيف» اليوم. فلقد عززت المكالمة الهاتفية أملها في أن «ستيف» كان يريدها أن تكون معه. وبدا أيضًا أسفه الواضح لعدم تمكنه من رؤيتها، وكان ذلك في ذاته نوعًا من المواساة.

عندما حان وقت العصر كان «جي» قد تخلص من شعور الكآبة الذي سيطر عليه، واختفى التوتر الذي انتاب «جولي» عندما اطمأنت إلى تصرفه الذي كان يعكس ارتياحه. وبعدما لعبت شوطين انتصر فيهما «جي» بنقط قليلة حضرت مجموعة صغيرة من أصدقاء «جي». ولم تعد «جولي» مركز اهتمامه. فقد لمحت تعلقه بفتاة جذابة شقراء، وشاركت «جولي» في بعض أشواط التنس الأخرى الفردية أو المزدوجة، كانت تتمنى بعدها أن تعود إلى البيت. ولكن «جي» كان يتلكأ في ذلك على الرغم من أن من في المجموعة أبدوا ميلاً إلى الانصراف.

وكانت «جولي» تريد أن تذكره بأن موعد العشاء قد حان، ولكنها خشيت أن يضايقه ذلك. وأخيرا انفرط عقد المجموعة عندما لاح الشفق القرمزي. وصحب «جي» «جولي» على مضض إلى سيارته، وحاول أن يعتذر إليها عن سلوكه فقال:

– لقد استعرت عبارة من «ستيف» سمعتها منه بينما كان يوبخ «كلودين» قائلاً إنه لا توجد امرأة في حياة أي رجل لا تستطيع امرأة أخرى أن تجعله ينساها. وأخذت «جولي» تسائل نفسها:

«هل يعتقد «ستيف» ذلك حقا؟» وأحست بشيء من الهلع يعتصر قلبها. هل

يهتم بها «ستيف» حقًا؟ هل كان عناقه لها يعكس شعوره الحقيقي بالحب نحوها؟ وكان ما يثير ذعرها أنها سمعت «ستيف» يقول لها إن الزواج شيء لا يفكر فيه. بل لقد أنكر مرة وجود ما يسمى الحب. ولعله لو عرف أنها قد وقعت في حبه بالفعل لابتسم وقال لها إنها سوف تشفى من ذلك الحب. واستعرضت في خاطرها الحياة التي يعيشها «ستيف»، وظنت أنه من غير المحتمل أن يكون قد أحس أو شعر بأيّ نوع من الحب. لقد تيتم في سني مهده الأولى وأمضى شبابه في البحر متنقلاً من ميناء إلى ميناء. ولم يألف أن يكون له مستقر على هيئة بيت، ولم يكن غريبًا أن ينجذب إلى «كاميرون هول»، المستعمرة التي حملت اسمه على بوابتها. لكن هل كان ذلك ليقدم له أي قدر من الاطمئنان؟ هل كان يحبها حقا؟ أم كان في استطاعة امرأة أخرى أن تحل محلها في ذكرياته؟ كانت تخشى أن تكون مجرد واحدة من قصص عاشها على ظهر السفينة. مجرد فتاة في أحد الموانئ! كانت، وهي تجلس في صمت إلى جوار «جي»، تحس بالخوف والقلق وبالأذى المرتقب.

- 10 -

سأل «ستيف» «جولي»، بعدما عبرا الجسر الصغير فوق الرافد ودفعا الرسوم المقررة:

– بما أنك أصلاً من الشمال فلا أعتقد أنك لاحظت استواء الأرض الواضح هنا في جنوب «لويزيانا».

– نعم ولا. فقد لاحظت ذلك، لكنني أعتقد أنك تسأل، عمّا إذا كان ذلك قد لفت انتباهي بشكل غريب. وأومأ «ستيف» بالإيجاب، وعندئذ علقت:

– إذن، لا.

– التلال غير منتشرة هنا. حتى أنها تعتبر شيئًا نادرًا. وفي حديقة «أوديون» في «نيوأورليانز» تجدين التل الوحيد، في العالم على الأرجح، الذي صنعه الإنسان، ويسمى تل «القرود». فلقد تكدست النفايات إلى ارتفاع وصل إلى حوالي اثني عشر مترا في الثلاثينيات، وأصبح بإمكان الأطفال في «لويزيانا» أن يشاهدوا منظرًا يمثل التل. وضحكت «جولي» وقالت:

– لا.

– إنها الحقيقة، وهذا هو السبب في أن جزيرة «آفري» أصبحت من الغرائب منذ زمن بعيد، وأعلى نقطة فيها تصل إلى حوالي سبعة وخمسين مترًا فوق سطح المياه التي تحيط بها، وهذا ما جعلها تتمتع بمركز فريد وإن لم يكن قد أكسبها قيمة.

– وما الذي جعلها كذلك؟

– الملح. وقد اكتشف لأول مرة في ينبوع في أحد الوديان الضيقة الشديدة الانحدار، يتحول بالغليان إلى أشكال بلورية. وعلى الرغم من ذلك فقد كان استيراد الملح في «أوربا» في القرن التاسع عشر أقل كلفة. وعندما قامت الحرب في عام 1812، وحاصرت «إنجلترا» «الولايات المتحدة» كان من الضروري الحصول على الملح بكميات كبيرة بطرق أولية للغاية، عن طريق الغليان والتبخير. وقد اقتضت الحرب الأهلية والحصار الاتحادي فيما بعد أن يعتمد الجنوب على مصادره الخاصة في الحصول على الملح. وعندما حاولوا تعميق الينبوع المالح، اكتشفوا كمية كبيرة من الملح الصخري مترسبة مسافة كيلو مترات وإلى أعماق لم يكن التكهن بها ممكنًا. وأصبحت هذه مناجم الملح منذ ذلك العهد. وسنقوم بجولة في منجم الملح أولاً. وتجاهل «ستيف» اللافتة التي تشير إلى الحدائق الكائنة في الغابة، وتابع:

– والملح لا يكتمل دون الفلفل. وجزيرة «آفري» هي منبع صلصة خاصة

www.RewityCom

تُصنع في الجزيرة كلها. واكتشفت «جولي» أن المنجم مثير وباعث على الاهتمام. كانت السقوف ترتفع حوالي ثمانية عشر مترًا وكأنها تستند إلى أعمدة بلورية. ولم تنس «جولي» أن السطح كان على مسافة تصل إلى ما يقرب من مائة وخمسين مترًا، وبدأ شعور بالخوف من الأماكن المغلقة يراودها عندما استأنفا العودة إلى السطح. وسألها «ستيف» وهي تتنشق أنفاسها بعمق عندما خرجا:

– هل أنت في حال أفضل؟ ونظرت إليه بدهشة، وتنشقت الهواء، وقالت:

– وكيف عرفت؟ وابتسم «ستيف» وقال:

– بدا عليك الشحوب قليلا. سوف أتذكر في المرة المقبلة أن الأماكن التي تقع تحت سطح الأرض لا تناسبك.

– المرة المقبلة؟! كانت «جولي» قد أحست بسحر الكلمات، ولم تعد قادرة على تثبيت قدميها وشعرت بأنها تسبح وهي تعود إلى السيارة مع «ستيف».. وكانا على مسافة قريبة من المنحنى المؤدي إلى حدائق الغابة ومدينة الطيور. وأشار «ستيف» إلى قصر كائن على الطريق المقابل لبوابة الدخول وقال:

– ذلك هو تل «ماي وارد». إنه صرة الحديقة وكان يخص «إدوارد آفري ماكلهيني» الذي ينسب إليه إنشاء حدائق الغابة ومدينة الطيور. هل أنت مستعدة للمشي؟ ونظر إليها في ابتسامة تدفعها إلى الاستسلام، وعلقت عندما توقف بالسيارة في أحد الأركان:

– ولكن الطريق لا ينتهي هنا.

– نعم. لكن لكي نجد الفرصة للاستمتاع الحقيقي بجمال المكان، يجب أن نسير على الأقدام. فضلا على أن هذه هي الوسيلة الوحيدة للوصول إلى مدينة الطيور. وتبعته وهي تقول:

– المشي متعتي.

– حسنًا. ومع ذلك فلن نستطيع أن نقطع الحدائق بأكملها. فالمساحة تزيد على مائتين وخمسين فدانًا. وقادهما الممر الذي سلكاه إلى أحواض نمو الخيزران المستورد، والتي تنتهي برصيف وبرج للمشاهدة يمتد عبر بركة كبيرة تسبح فيها الطيور المائية بأعداد متفاوتة. كان المكان ينعم بهدوء جميل جعل «جولي» تفضل البقاء فيه، ولكن «ستيف» أقنعها بأن أمامها الكثير من المناظر التي تستحق المشاهدة. وشقا طريقهما من جديد إلى السيارة. كان الطريق ينحني ويستدير في تلك المنطقة، وبدت أشجار الماجنوليا جميلة الأوراق والزهر، كذلك أشجار البلوط الضخمة على الجانبين تليها أحواض الخيزران العالية أو المنخفضة وبعض الأشجار المزهرة. أما أشجار الأزاليا، ذلك النبات الصحراوي فكانت شائعة.

وتوقفا ثم سارا خلال الأرض المنخفضة وبين زهور الكاميليا البيضاء والحمراء، وشاهدا الشلالات الصناعية. وعادا إلى السيارة ليستأنفا جولتهما بمحاذاة رافد «آنسو» الصغير من اليمين، وشريط المستنقع الضيق من اليسار. وأدى بهما الطريق إلى مكان صغير للانتظار، ووجدا لافتة جذبت انتباههما إلى شجرة «كليفلاند» الشهيرة، التي كانت تستخدم منذ سنوات كنقطة يتم منها مسح المنطقة الأصلية. ولم يحتج الأمر هذه المرة إلى أن يطلب «ستيف» إلى «جوليا» السير على الممر المؤدي إلى الشجرة، فخرجت من السيارة في حماسة لتطل عن كثب على ذلك القسم من الحدائق.

ووقفا تحت الشجرة العملاقة يتأملان فعل الطبيعة وأثر الزمن في الأغصان المتكسرة، والشقوق الغائرة في جذعها الأخضر. ومع ذلك بدت الشجرة قوية تستطيع أن تصمد مئات من السنين، وعليها مجموعات من الطحالب الإسبانية تبدو وكأنها لحية رجل متقدم في العمر، ولكن الممر لم ينته عند شجرة البلوط بل كان يمتد فيما يشبه غابة كثيفة. وسألت «جولي» في استغراب:

– إلى أين يتجه الممر بعد ذلك؟

– سوف نستكشف. وأشار إليها بأن تسبقه قائلاً:

– انتبهي، فالممر لا يستخدم كثيرًا، وقد يكون لزجًا. كانت العوارض الخرسانية مغطاة بالطحالب في بعض الأجزاء، وكانت قد تكسرت قطعًا صغيرة في أجزاء أخرى. وساعدتها يد «ستيف» التي كانت تسند مرفقها على اجتياز الطريق على الرغم من أن ملمسه كان يثير فيها بعض الاضطراب. وبدا على أحد حافتي الممر مستنقع مائي يشبه مجرى صغيرًا، بينما ارتفع قصب الخيزران على الحافة الأخرى. وعند ثنية منحنى في الممر ظهرت بجعتان بيضاوان تسبحان في بطء على الماء. وأحستا بوقع الخطى فبدأتا تتحركان في مشهد رائع، وأحدثتا بعض التموجات الطفيفة على سطح الماء الرائق كالمرآة. كانت «جولي» قد سُحرت بمنظر الطائرين البديعين حتى إنها لم تنتبه للأرض غير المستوية أمامها، واصطدمت قدمها بقطعة ناتئة من الخرسانة كادت تسقط معها إلى الأمام، ولكن ذراع «ستيف» حمتها من السقوط، واحمرّت وجنتاها من الاضطراب وتلعثمت وهي تشكره. وحاولت أن تتخلص من ذراعه المحيطة بخصرها والتي كانت تشدها لتلتصق به. ولكنه رفض أن يرخي قبضته. وهمس برقة في أذنها قائلاً:

– لم يكن من السهل أن نتجنب ذلك. كان من اللازم أن ينتهي بك الأمر بين ذراعي بطريقة أو بأخرى. وقبل أن تتمكن «جولي» من أن تستدير لمواجهته، وكان بينهما عناق مسيطر. كان كل الحنين الذي حاولت أن تبعده عنها وهي في ذراعيه قد بدأ ينطلق في حرية كاملة عندما استسلمت بسعادة لعناقه. وأحست «جولي» وكأنها انتقلت إلى آفاق جديدة من الحب سيبت لها الدوار أكثر من الشرارة الملتهبة التي رافقت العناق الأول بينهما، وبات دفء الحب الذي كان بينهما في يوم من الأيام نارًا محرقة. واستطاع «ستيف» بخبرته

المتخصصة في العناق أن يضيف مزيدًا من الوقود.

وجاءت قهقهة بعض الأطفال من مسافة قصيرة لتهدئ من هذا الوضع قبل أن يتطور ما بينهما إلى مرحلة أخرى. وعلى الرغم من ذلك لم يسمح لها بأن تبتعد عنه بل احتفظ بها بين ذراعيه ورأسها يستند إلى صدره، حتى هدأت دقات قلبها واستقرت أنفاسها بعض الشيء. وأيقنت «جولي» التي كانت تتطلع إلى مزيد من العناق، أنه لولا أصوات الآخرين فلربما قادهما العناق إلى نقطة لا تؤتمن. كان عمق حبها له يمنحه السيطرة عليها. وتحركت يد «ستيف» نحوها وترك أصابعه تعبث في شعرها وتحرك إبهامه ليرفع ذقنها إلى أعلى. ولم تحاول «جولي» أن تخفي إشعاعات الحب من عينيها، إذ ما جدوى أن تخفي عنه ما كان قد أدركه تمامًا؟ وتمتم في صوت أجش:

– لقد بدأ وهجك يلفحني. كيف نجحت في إخفاء هذا الجانب العاطفي من طبيعتك؟ كان أولى بأحد الفرسان أن يقطفك للزواج منذ زمن بعيد. وهمست «جولي» وهي تحس بأنها تغرق في نظراته قائلة:

– ينبغي للمرأة أن تبدي موافقتها على الزواج. وتنشقت نفسًا عميقًا بينما كان «ستيف» يحاول أن يقرأ ما بين الكلمات التي نطقت بها. وأحكم ذراعيه حولها. وتوقفت «جولي» فجأة حتى أن «ستيف» كاد يصطدم بها. كانت يداه تستندان إلى أسفل ظهرها بخفة. وحدّق إليها في تجهم قائلاً:

– هلا كففت عن النظر إليّ بعينيك البنيتين؟ كانت «جولي» تستطيع أن تتبيّن أن رقة صوته مفتعلة. وتابع هو:

– ولا أعتقد أن هذا هو المكان الذي نستطيع فيه أن نحقق مشهدًا عاطفيًا متقدًا بينما «بوذا» يطل علينا. ونظرت «جولي» عبر كتفها. وعلى تل صغير في معبد زجاجي مغلق كان هناك تمثال ضخم من الذهب لـ «بوذا» تحيط به تلاله السبعة يحدق إلى بركة صغيرة تعكس صورته على الماء في شمس المساء

المتأخر. وبدفعة رقيقة من «ستيف» واصلت السير على المر الذي أدى بهما إلى قاعدة المعبد.

كانت الحديقة الصينية موضع اهتمام الزوار، يتوقفون للاستمتاع بمنظرها الجميل. ولم يعد هناك مجال ليتمتع «ستيف» و «جولي» بالخلوة التي كانا منفردين فيها وهما يتجولان في أقسام أخرى من الحديقة. وبعدما تسلقا الدرج المؤدي إلى المعبد استطاعا أن يلقيا نظرة أقرب إلى «بوذا» الذي كان منذ أكثر من ثمانية قرون مضت يجلس في معبد «شونفا» بالقرب من «بايينغ» في «الصين». وقفلا راجعين إلى السيارة. وسلكا الطريق العام الضيق الآهل بالمارة بدلاً من الطريق الذي كان يتيح لهما الاستمتاع بالخلوة بينهما. واتجها بالسيارة إلى بوابة الخروج، مارين تحت ظلال كروم الفستيريا ذات الزهر العنقودي الأزرق والأبيض، وتحت زهور الكاميليا بعدما اجتازا المنعطف الواقع عند تل «ماي وارد». كانت الشمس تميل إلى المغيب بأشعة ذهبية برتقالية حجبت مؤقتا أطياف الغروب القرمزية. وتنهدت «جولي» بعمق وهما يجتازان البوابات الحجرية التي كانت تعلن نهاية اليوم الذي قضته «جولي» مع «ستيف» وحان الوقت ليصطحبها إلى البيت الذي تقيم فيه. أما هي فكانت تتمنى أن يطول اليوم إلى الأبد. وسألها في لهجة آمرة:

– هل تتناولين العشاء معي؟ وأجابت في حماسة:

– أتمنى ذلك. وتوقفت بعض الوقت لتضيف في شيء من التردد:

– ولكنني لست في الزي الذي يسمح لي بذلك. وضحك وهو ينظر إلى القميص البولو الذي تلبسه وإلى البنطلون المخطط بالأبيض والأسود، وقال:

– ولا أنا. ولكن المطاعم هنا لا تصر على الرسميات. ومد يده الطليقة عبر المقعد لتمسك بيديها، وقال:

– أين تتناولين العشاء؟

– لا أعرف شيئًا عن المطاعم هنا.

– هل تفضلين الأسماك؟

– لم آكلها منذ زمن طويل، وإن كنت قد تناولت بعض القريدس وجراد البحر عندما كنت مع أسرتي.

– هذا يحسم الموضوع. إذن ستكون وجبتنا بحرية.

– كان منظر المطعم يصلح مادة لصورة جميلة. وكان يلاصق رافدًا مائيًا ويقوم على ركائز ترفعه حوالي متر فوق الأرض. أما الطريق المؤدي إليه فكان أشبه برصيف بحري تنتشر عليه شباك الصيد، وفوانيس الإضاءة المستخدمة في البحر تتدلى على واجهة المبنى التي فعل فيها الطقس فعله. أما من الداخل فقد بدت مناظر السفن الشراعية في البحار الهائجة، ومناظر المرافئ الهادئة تزين الجدران جنبًا إلى جنب مع بقايا تذكارية من سمك أبو سيف وغيره من عينات أخرى. أما الجدران فقد غطيت برقائق خشبية للزينة وأضيئت بحوامل ذات طراز حديث، بينما كانت تتدلى من السقف بأعمدته الخشبية بعض النجف لينسجم مع المنظر العام. كان كل شيء يعبر عن البساطة في حياة البحر.

واستأذن «ستيف» بعدما جلسا إلى المائدة مباشرة ليجري اتصالاً هاتفيًا، وراحت «جولي» تتفحص الطعام بعناية. ولم يذكر «ستيف» شيئًا عمن اتصل به، ولم ترغب «جولي» في أن تتدخل فيما لا يعنيها، وإن عبرت ملامح وجهها عن التساؤل دون أن تنطق به. وابتسم «ستيف» وقال:

– لقد اتصلت بعائلة «لوبلان» حتى لا تنتظرك على العشاء.

– كان ينبغي لي أن أفكر في ذلك، وخاصة أنني لم أترك أي إشارة عن وجهتي اليوم. وحوّل «ستيف» الحديث بمهارة عندما وجد الفتاة التي تقدم الطعام آتية نحوهما فقال:

www.rewity.com

– ما الذي استقر عليه رأيك من قائمة الطعام؟

– لا أستطيع أن أتخذ قرارًا فيما إذا كنت أطلب شيئًا أعرفه مثل القريدس، أو أجرب أشياء قد لا تعجبني. من الأفضل أن أختار منتصف الطريق. قريدس مسلوق مثلاً؟

– جربي طبق طعام البحر ففيه قليل من كل شيء إذا كان لديك استعداد للتجريب.

ووافقت «جولي». وسرعان ما بدأت تشك في قرارها، عندما قُدّم إليها فيما بعد طبق مكدس لم تر فيه شيئًا تعرفه سوى القريدس المقلي. وبرز أحد الأصناف على الطبق على شكل جسم مستدير تخرج منه أرجل في سائر الاتجاهات، حسبته نوعًا من العناكب مما أثار إحساسها بالغثيان. وكان «ستيف» قد طلب لنفسه الطبق ذاته، وأدرك على الفور ما أصابها من الاضطراب. وأشار إلى ثلاث قطع ذات لون بني غامق على طبقها، وقال:

– هذا محار مقلي. وأشار إلى قطعتين صغيرتين مستديرتين، قائلاً:

– وهذا قريدس محشوّ. أما الآخر فهو كابوريا محشوّة. وهنا تجدين القريدس المسلوق، وستجدين كذلك المقلي منه. وتوقف أخيرًا عند آخر صنف على الطبق، وهو أول ما لفت نظر «جولي» وقال:

– وهذه كابوريا من نوع صدفة هشة. وبدأت «جولي» وجبتها بالأصناف التي اعتادتها: القريدس المقلي. وانتقلت إلى المحار. ولم يكن له ذلك المذاق الذي لنظيره في يخنة المحار. وكان للقريدس المحشو وللكابوريا مذاق لذيذ. أما المسلوق فكان متبلاً تتبيلاً جيدًا. وبقي الشيء الوحيد الذي لم تأكله هو الكابوريا ذات الصدفة الهشة. وأخذت بالشوكة قطعة من لحمها الطري ورفعته في تردد إلى فمها. وبعد دقيقة نسيت فيها تمامًا أي لحم هو، وجدته لذيذ المذاق. وكانت القضمة الثانية أفضل من الأولى. وشعرت بالزهو تمامًا،

إلى أن تحدث «ستيف» قائلاً:

– بالنسبة إلى الكابوريا ذات الصدفة الهشة يأكل الإنسان منها كل شيء.

ونظرت إليه في شك وقالت:

– إنك تمزح. ورد عليها:

– لا أمزح. بل تأكلين كل شيء. ولكي يبرهن صحة كلامه نزع واحدة من الأرجل الكبيرة للكابوريا من طبقه ودفعها إلى فمه. وكادت عيناها تخرجان من مكانهما وهي ترقبه يمضغها بأسنانه ويبتلعها. وانطلقت من فمها قهقهة قصيرة عندما أدركت أنها لم تكن خدعة، وأن رجل الكابوريا لن تعود إلى الظهور مرة أخرى. وقال يؤكد لها:

– إنها لذيذة المذاق حقًا. جربي واحدة. ولم تدع رغبتها في تجريب الطعام تخذلها هذه المرة، وخاصة أن «ستيف» كان ينتظر... واستجمعت شجاعتها، ونزعت إحدى الأرجل الصغيرة ورفعتها في خوف إلى فمها، ولم تسمح لنفسها بالتردد وبدأت تقضمها. وكانت مثل كل شيء آخر، لذيذة هي الأخرى. وابتسم «ستيف» وقال:

– الواقع أن الأرجل الأكبر والأذرع الأمامية أطيب مذاقًا. وعندما جاءت الفتاة لتقدم الحلوى، لم يكن في طبق «جولي» شيء كثير من البقايا. وكان «ستيف» قد أحسن الاختيار بأن طلب خليط فواكه طازجة. ولم تكن «جولي» تظن أن بوسعها أن تتناول شيئًا أكثر من ذلك، ولكن الخليط كان مفاجأة أخرى، فلم يكن مذاق أي من أنواع الفاكهة ينسجم مع مذاق نوع آخر. كانت هناك كرات من البطيخ لا تنسجم مع مذاق نوع من كوز العسل، ولم يكن طعم الأناناس يتمشى مع طعم الجريب فروت. أما الفريز (الفراولة) فكان لها طعمها الخاص بها. وأخيرًا استرخت في كرسيها وقد شعرت بالامتلاء. وتنهدت وقالت وهي ترى «ستيف» يشعل سيجارة:

www.rewity.com

– كان كل شيء لذيذًا.

– يسرني أن الطعام أعجبك. إنه لشيء جميل أن يأكل الرجل مع امرأة لا تمتعض خلال الطعام.

– لن تحتاج إلى إقناعي بأن آكل كثيرا، فقد نشأت في مزرعة. وبالمناسبة فلقد بدا أنك تعرف جميع أنواع النباتات هنا. وعندما أحست بشيء من التردد، شجعها «ستيف» قائلا:

– نعم؟ وماذا في ذلك؟

– لقد أمضيت وقتًا طويلاً في البحر، وكنت أفكر الآن في كيفية أن يتسنى لك أن تجمع كل هذه الخبرة عن النباتات وعن المحاصيل، مثل السكر وغيره، مما رأيته في مستعمرتك. وابتسم قائلا:

– لم يمض عليَّ وقت طويل في البحر حتى اكتشفت القراءة، وربما كان ذلك بسبب الوقت الطويل الذي يجده الإنسان عندما لا يستطيع أن يرى أي أثر للأرض. ولقد أصبحت هاويًا للزراعة وللبستنة والجيولوجيا. بل أصبح كل شيء يرتبط بالأرض يستهويني، ولذلك عندما قررت أن أشتري المستعمرة لم يزد الأمر بالنسبة إليَّ على توظيف ما تعلمته بنفسي مع شيء من التفكير، بالإضافة إلى بعض المحاولة والخطأ. حتى وصلت إلى ما أنا عليه.

– أليست الفلاحة عملاً صعبًا؟ وضحك وقال:

– لكن ألا تثقين بقدرتي على القيام بالأعمال الصعبة؟! وابتسمت بطريقة خبيثة، وقالت:

– لقد تذكرت أول مرة تقابلنا فيها وأخبرتني بأنك ممن يتحمسون بشكل كبير لفلسفة اللامبالاة التي يعتنقها «الكاجون».

– إن لها مزايا. فبعض الناس يأخذون الحياة بطريقة جدية أكثر مما ينبغي. والتوصل إلى التوسُّط في الأمور يكون صعبًا في بعض الأحيان. إنني أعجب بحماستهم المرحة وتقبلهم للأمور التي لا يستطيعون تغييرها.

– لقد نسيت خيالهم، وقد قصصت عليَّ حكاية جراد البحر. وأومأ «ستيف» موافقًا وقال:

– إن لهم قصصًا خيالية أخرى كثيرة لا تقل شاعرية. وعلى سبيل المثال هناك قصة عن «ماري أنطوانيت» بعدما قتلت على المقصلة. كان ابنها «ألدوفين» وريثها على العرش قد تم تهريبه إلى خارج «فرنسا» بواسطة أنصار الملكية من سكان «لويزيانا»، واستقر به المقام في النهاية في «الولايات المتحدة» وأصبح من مواطنيها الذائعي الصيت. وخمنت قائلة:

– «جان لافاييت»، على ما أظن؟

– لا.. وإنما «جون جيمس أودبون». رسام الطيور المشهور. ولهثت «جولي» قائلة:

– ألم يكن ذلك ابنًا بالتبني؟

– يذكر التاريخ أنه ولد من زواج غير شرعي على الرغم من أن أباه قد تبناه قانونيًا. ولكن الأكاديون يقولون إنها قصة مختلقة لحماية «ألدوفين» من انتقام الثوار. ونفض «ستيف» سيجارته، وتابع:

– إنهم يقنعونك بأن السجلات التي تقر بوجود «أودبون» قبل اختفاء «ألدوفين» هي مزورة كليًا لإخفاء شخصيته الحقيقية حتى لا تُعرف. كانت أصابعها تتحسس فنجان القهوة وقالت:

– إنه نوع من الإثارة لو كانت قصة حقيقية. وعندما ساد الصمت وعاودت «جولي» التحديق إلى فنجانها، سألها «ستيف»:

– فيم تفكرين الآن؟ كان هناك شيء من الخبث في الابتسامة التي ارتسمت على فمها، وقالت:

– كان هذا اليوم «شيئًا أكثر» أحب أن أعيشه دائمًا.

– ورفيقك في هذا اليوم، هل كان هو الآخر «شيئًا أكثر» كذلك؟ كانت سحابة من دخان السيجارة غطت ملامحه بحيث لم يكن في وسعها أن ترى وجهه بوضوح. وقالت بهدف إغاظته:

www.rewity.com

– ذلك البربري! في إمكانك أن تطلق عليه ذلك. وابتسم «ستيف» ابتسامة عريضة، وسحق سيجارته في المنفضة قبل أن تحمل نظرته لهيب شوقه إليها عبر المائدة التي تفصل بينهما، وقال:

– من حسن حظك أننا في مطعم عام وأن هناك مائدة تفصل بيننا. وتقوس فمه داعمًا التهديد الساخر الذي كان ينطق به. وأسرعت دقات قلبها وهي تتخيل «ستيف» يمطرها بالعناق ومد يده لتحكم القبض على أصابعها التي كانت تعبث بفنجان القهوة الفارغ. وأحست من خلال قبضته الرقيقة التي كانت تجمع بين الخشونة والعناق في آن واحد، بتيار كهربائي عالٍ ينطلق خلالها مشعلاً طاقة مختزنة في داخلها، وهو يقول:

– هل قلت لك اليوم. كم تبدين جميلة؟! وعلقت وهي تضحك:

– بما في من نمش وسواه؟ كانت مقتنعة بأنها جذابة إلى درجة عادية لا تستحق ذلك الإطراء الكبير.

– لقد رأيت العديد من النساء الجميلات ممن لهن نمش. ولا أستطيع أن أعفيك من الإطراء الذي أوجهه إليك بصدق كامل. إنني أحسد الشمس التي طبعت على وجهك تلك القبلات العديدة وجعلتك دائمًا تشرقين بهذا القدر من الإشعاع.

– وهل في وسع أي فتاة أن تعرض نفسها للشمس لتحظى بمثل هذا الإطراء؟! وهزت رأسها لتتحرر من سحره الذي كان يسيطر على كل حركة وسكنة منها. وسحب يده برفق وهو يقول:

– أراك تجدين أن تغيير الموضوع هو أنسب رد. وأشار إلى فتاة المطعم لتحضر قائمة الحساب، وسألته:

– ماذا تعني؟

– أعني أن عليَّ دائمًا أن أطفئ النيران التي تشعلينها، وكأنك لا تحسين ما بي! وكانت نظرته تشعل النار فيها. وتتركها وهي تعرف تمامًا ما كان يعنيه.

- 11 -

عندما طلب «ستيف» «جولي» في اليوم التالي، كانت قد غادرت المنزل منذ وقت قصير لقضاء بعض الحاجات الشخصية في المدينة، فترك لها رسالة لدى السيدة «لوبلان» بأنه سيعاود الاتصال تلك الليلة. وأسفت «جولي» كثيرًا لعدم وجودها وتلقي الرسالة بنفسها، لكن كان عزاؤها أن الأمل مازال قائمًا وإن كلفها الانتظار يومًا كاملاً.

كانت لا تزال تحتاج إلى أن تتخذ قرارًا فيما تَعمله طوال اليوم، ولم يكن من دأبها أن تقبل بسهولة الجلوس بلا عمل. وبدا لها أن أسلم طريقة لقضاء الوقت حتى يحين المساء أن تشغل نفسها بالسياحة، على الرغم أن الفكرة لم تكن مثيرة. وكان هناك مكان قريب لم تزره بعد وهو حدائق «رب فان ونكل» في غرب «إيبيريا».

كانت الحدائق الغناء على الطراز الإنجليزي تبدو باردة إذا ما قورنت بحدائق الغابة في جزيرة «آفري». ولكنها كانت هنا دون رفيقها. وتأكدت أن لذلك دخلاً كبيرًا في نقص حماستها. ونظرًا لشدة الحرارة والرطوبة، قررت أن تتناول شرابًا باردًا في رحلة العودة وهي تخترق مدينة «نيو إيبيريا».

وتبينت أنها بمحض المصادفة، أو بإيحاء لاشعوري جعلت سيارتها «الفولكس واغن» تنتظر قريبًا من المتجر الذي طلب منه «ستيف» شراء القماش اللازم لتنجيد الأريكة والكراسي.

ودخلت «جولي» المتجر استجابة لدافع ساذج. وتعرفها فورًا البائع الذي قام بخدمتها في المرة السابقة، وأوضح لها أن الطرود وصلت منذ قليل في ذلك الصباح، وعبر عن سعادته لمجيئها في الوقت الذي كان يعتزم الاتصال بالسيد «كاميرون»، وعرض عليها أن تأخذ القماش معها؛ فقد دفع ثمنه من قبل. وترددت بعض الشيء خشية ألا يرتاح «ستيف» إلى ذلك التصرف.

واحتاج الأمر إلى بعض الجهد لإدخال القماش بحجمه الكبير داخل السيارة. وتبين لـ «جولي» بعد ذلك وهي تحتسي عصير الليمون في أحد المطاعم، أنها ضيعت وقتًا كبيرًا في متجر القماش. وعادت إلى السيارة وهي ترجو ألا تكون سببًا في تأخير موعد العشاء لأسرة «لوبلان» كما حدث في الليلة السابقة عندما تأخرت هي و «جي».

ووصلت «جولي» بالفعل في وقت يسبق موعد الطعام بكثير. وعرفت أن «ستيف» طلبها قبل أن تصل، وأحست بشيء من الإحباط والغضب من نفسها، لأنها تغيبت ذلك الوقت الطويل في الخارج، ولم تجد لديها شهية للطعام، وبدأت تتساءل: «هل يخطر لـ «ستيف» مثلاً أني كنت أقصد مضايقته؟ لم يذكر «ستيف» في المرة الأخيرة أنه سيعاود الاتصال بي. ماذا يحدث لو أنه لم يتصل؟» وأخذت تعاون السيدة «لوبلان» في حمل الطعام إلى المائدة، وهي تندب سلوكها الذي جعل المكالمة تفوتها. وفكرت في الاتصال به، ولكن الهاتف موصل رديء أحيانًا. وقررت أن تقود سيارتها إلى «كاميرون هول» تلك الليلة ذاتها مهما بدا ذلك تصرفًا جريئًا، وخاصة أنها تستطيع أن تجل عذرها في ذلك هو تسليمه قماش التنجيد.

ولم تخبر «جولي» السيدة «لوبلان» بشيء سوى أنها خارجة وسوف تعود في وقت متقدم من المساء. كان الغسق قد استسلم لحلول الليل عندما جلست وراء عجلة قيادة سيارتها، ولمحت «ميشيل» عائدة بسيارتها من المدرسة حيث أحضرت بعض الأوراق التي نسيتها هناك. واضطرت «جولي» إلى التريث حتى تقف سيارة «ميشيل» في مكان الانتظار، ويخلو لها طريق الخروج. وصاحت «ميشيل» تسألها:

– هل تعتزمين الخروج؟ وأجابت دون أن تعطي مزيدًا من الإيضاح:

– نعم. ولوحت «ميشيل» قائلة:

– احترسي! فالضباب كثيف الليلة. تركت «جولي» مدينة «سانت مارتنفيل» واتخذت طريقها خلال الريف، وتبينت أنها لم تعر تعليق «ميشيل» حول

الضباب ما يستحقه من اهتمام. فقد كان الضباب يلتف حولها بشكل كثيف إلى الدرجة التي جعلتها تضطر إلى خفض السرعة لأدنى حد ممكن، وعجزت الأضواء العالية في السيارة حتى عن أن تمكنها من رؤية المستنقع الممتد على طول الطريق بشكل واضح، بل لم تستطع تلك الأضواء أن تكشف الرؤية لأكثر من أمتار قليلة أمامها. وتكاثفت الرطوبة على الحاجب الزجاجي لتزيد من صعوبة الرؤية. واعتمدت على غريزتها في تعرف تقاطع الطرق والطريق المؤدي بها إلى الحارة الترابية المؤدية بدورها إلى المستعمرة.

كان الوقت يمر ثقيلاً شأنه شأن «الفولكس واغن» ذاتها. وعلى مدى الطريق تصورت «جولي» أنها ضلت الطريق. وبدأ الألم في أصابعها من طول ما كانت تضغط بها على عجلة القيادة. وشعرت بضربات الصداع في مؤخرة رقبتها وبآلام في عينيها من كثرة التحديق إلى الحاجب الرمادي الذي كان يحيط بها. وأحست بصيحة يأس تحتبس في حلقها وظنت أنها ضلت الطريق بالفعل عندما لمعت لافتة بيضاء صغيرة قرب حافة الطريق كان من الصعب قراءة ما كتب عليها بسبب الضباب المتكاثف حولها. وأوقفت السيارة تماما، وترجلت منها تاركة محركها يدور. ونظرت إلى اللافتة عن كثب ووجدت العبارة: «طريق خاص.. ممنوع التجاوز».

كانت العبارة تعلن عدم الترحيب ومع ذلك أحست إزاءها بالاطمئنان. لقد نجحت بمعجزة في الوصول. وعلى الرغم من ذلك كان أمامها حوالي أربعمائة متر إلى المستعمرة. وغدت المشكلة أنها كلما اقتربت من المستعمرة ومن الرافد على الجانب المقابل زادت كثافة الضباب. ولم يكن هناك أمل في أن ترى المدخل ببواباته الحديدية. واضطرت إلى أن تخمن المسافة وأن تستكشف المدخل سيرًا على الأقدام معتمدة على كشاف ضوئي كان معها. ولم تخط أربع خطوات من السيارة حتى تبينت شكله الغريب المستدير وساعدها لونه الأحمر على الوصول إليه. وخطت إلى الأمام خطوتين وتنشقت أنفاسها بعمق، وقد أطبق الضباب كليًا على السيارة وأسدل فوقها ستارًا يحجبها عن الرؤية.

WWW.RIWAYAT.COM

وأخذت تشق طريقها في بطء شديد على طول المستنقع تبحث عن القنطرة المؤدية إلى البوابات، وهي تحاول أن تخلص نفسها من الأفكار المقلقة خشية أن تضل الطريق في تلك السحابة السوداء الرمادية.

وكادت تضل الطريق إلى البوابات في ذلك الظلام الكثيف الضباب، ووجدتها مغلقة. ولم يكن شعاع الكشاف الضوئي يذهب إلى أبعد من البوابات الحديدية بمسافة كبيرة بسبب الضباب. ووضعت يديها على القضبان الحديدية الباردة الرطبة في شيء من التردد، وبدأت تهزها لتستطلع مدى إحكامها. وبدا الجرس المتدلي من العمود وكأنه أخرس بلا رنين. ومع ذلك وقفت تنتظر قبل أن تتسلق القضبان الحديدية. وكان آخر ما تتمناه أن ترى كلب الرعي الأسود الألماني في ذلك الطقس. لكن حتى ذلك الكلب لم يخرج للترحيب بها.

وكان من السهل أن تتسلق البوابة. وبدت الأشجار والشجيرات على الجانب الآخر بشكل ينذر بالسوء على جانبي الطريق الضيق. وخشيت أن يثب الكلب في أي لحظة بأنيابه البيضاء التي تلمع في الظلام. ولم يكشف الضوء الصادر عن الكشاف الذي كان معها سوى أغصان البلوط الضخمة والطحالب الإسبانية التي كانت تتخذ أشكال ظلال كثيفة. وبدأ ضوء خافت يتراءى لها من الغارسونييرة، وزاد توتر أعصابها عندما جاء من الردهة الضيقة صوت نباح خفيف. وتبينت «جولي» أن الصوت كان آتيًا من الباب الداخلي. ووقف الكلب أمامه كأنه يحرسه، وصاحت تنادي:

- «ستيف»! وزمجر الكلب كأنه يجيب، ولكنه لم يتحرك نحوها. وكررت النداء، وجاء جرس صوتها غريبًا في أكناف الصمت. وخطر لها أنه لو كان «ستيف» في الغارسونييرة لسمع صوتها بالتأكيد. وبدا الكلب قد أنس إليها؛ لأنه لم يبد أي اعتراض عندما بدأت تخطو باتجاه المدخل. وكانت لا تزال تتردد في السير أمامه نحو الباب. وخاطبته قائلة:

- أين سيدك يا «بلاك»؟ وأخذ الكلب يهز ذيله تعبيرًا عن الود. وخطت «جولي» خطوة جريئة نحو الباب، ولكن الكلب سرعان ما أطلق زمجرة تنبئ

عن التهديد. وتوقفت «جولي». وأخذ الكلب يهز ذيله من جديد وكأنه قد حدد لها نطاق حركتها فسمح لها بالوقوف في الردهة، أما الغارسونييرة فلم يسمح لها بالدخول إليها. ولم تحاول أن تقنعه بالسماح لها أكثر من ذلك.

- هل بإمكاني أن أنتظر «ستيف» هنا؟ كان من العبث أن تسأل الكلب، وهو لا يستطيع أن يجيب، ولكن أعصابها المتوترة، بسبب الضباب والسكون، جعلتها تفعل ذلك. وأحست بشيء من الارتياح وهي تسمع صوتها وأن هناك من تتحدث إليه. كانت الرطوبة الساخنة قد بدأت تخترق ثيابها، وبدأت تحس بالألم في عظامها وشعرت برجفة. وأخذت تدلك ذراعيها بقوة وهي تنظر في قلق وخوف حولها. لم يكن هناك أثر لـ «ستيف». وبدت فكرة العودة إلى السيارة والرجوع بها إلى بيت آل «لوبلان» في ذلك الضباب شيئًا مفزعًا.

وجاء صوت «ستيف» من الطرف البعيد للردهة الضيقة في شيء من التأنيب يقول:

- ماذا تفعلين هنا؟ وجاء ردّها مضطربًا:

- لقد جئت لأراك، وكدت أقنع بأنك لست هنا. واقترب منها والغضب يتطاير من عينيه. لقد توقعت منه أن يعبر عن دهشته أو عن فرحه بها، وكان آخر ما توقعته أن تراه غاضبًا. وقالت:

- لقد وصل قماش تنجيد الأريكة والكراسي اليوم. كنت في «نيوايبيريا» وتوقفت هناك. ولقد تركت القماش في السيارة. لم أكن مرتبطة بشيء الليلة وفكرت في أن أحضر القماش. وسألها:

- كيف وصلت إلى هنا؟ وأجابت في وهن وهي تستسلم لنظرته المحدقة باستغراب:

- لقد حضرت بسيارتي، لم أكن أتوقع أن يكون الضباب بهذا السوء، حتى خرجت من المدينة. وأخذت ترتعد مرة ثانية، ولم يكن ذلك بسبب البرد فقط وواصلت تقول:

- كنت قد وصلت إلى هنا بالفعل... وإلا لكنت رجعت. أكاد أحس أن

الرطوبة سرت إليك كذلك.

– ولماذا لم تدخلي إلي البيت حيث الدفء؟

– لم يسمح لي كلبك بتخطي المدخل. قالت ذلك وهي تحس بشيء من الضيق لسلوكه الغريب تجاهها. ونظر «ستيف» إلى الكلب الذي يجلس في الخارج كما لو كان قد نسي أنه هناك. وجعل أصابعه تتخلل شعره الأسود الذي كان قد بدأ ينثني قليلاً من الرطوبة. وأمرها في حدة، وهو يشير إلى المدفأة:

– اجلسي إلى جانب النار حتى أحضر سيارتي «البيك أب» فلها مصابيح خاصة للضباب. أما عن سيارتك فسأحضرها لك صباح الغد.

– أشكرك على سرورك الزائد لرؤيتي. قالتها في سخرية وهو يتجه إلى الباب، وكان أسفل ذقنها يرتعد بينما كانت الدموع تلتهب في مقلتيها. وحدق إليها قائلاً:

– ماذا تعنين؟

– إنها لوعتي. أقود السيارة طوال الطريق حتى أصل إلى هنا ولا أجد منك حتى كلمة ترحيب أو استفسار عن حالي قبل أن تحزمني كبضاعة لتحملني إلى البيت.

– إذن.. كيف حالك؟ كيف حالك مرة ثانية أيتها الغبية الصغيرة التي لا تحسن التفكير! أيتها المخبولة! كانت تلاحظه بجسدها المرتجف وهو يتنشق أنفاسه ليسيطر على غضبه. وأخذ ينظر إليها في صمت ويداه على مؤخرة ظهره. وهمست قائلة وهي تعجز عن مواجهة عينيه اللتين تشيران إليها بالاتهام:

– أكاد لا أفهم! وأجاب في كآبة:

– إن هذا شيء واضح. كم سيارة مررت بها في طريقك إلى هنا؟ وأحست «جولي» بأنها تتضاءل أمامه، وقالت:

– ولا واحدة.

– ذلك لأن أي شخص لديه ذرة من العقل لا يمكن أن يخرج في مثل هذا

الضباب.

– ولكن «ميشيل» كانت عائدة من الخارج عندما اتخذت وجهتي إلى هنا، ولم يكن يبدو عليها القلق.

– لأنك لم تخبريها عن وجهتك. هل قلت لها إنك آتية إلى هنا؟ لو أنك فعلت ذلك لحذرتك من القدوم.

– ولكنها لم تحذرني. وهأنا هنا، ولا ينبغي لك أن تعاملني بهذه الوحشية.

– كان من الممكن أن تنقلب سيارتك في مستنقع أو تصطدم بأحد أعمدة الهاتف وتتهشم. ماذا تنتظرين مني إزاء ذلك؟ وهمست قائلة:

– لم أكن أظن أنك تهتم بي إلى هذا الحد. وقطع «ستيف» المسافة بينه وبينها في سرعة خاطفة، وامتدت أصابعه لتنشب في عظام ذراعيها، ورفعها إلى أعلى وهو يتمتم:

– أهتم؟! واحتبست كلماته في شعرها البني المسدل على فمه، واعترضت في وهن قائلة:

– إنك تؤذيني. كان اقترابه منها قد أفقدها الإحساس بالألم حيث كانت أصابعه تضغط على بشرتها.

– إنك تستحقين ذلك، وأقل ما يمكنني أن أفعله هو أن أثني جسدك على ركبتيّ أو آخذك بين ذراعي. وحدقت «جولي» إلى وجهه وقالت:

– إذا كان هذا شعورك، فلماذا إذن تريدني أن أعود؟

– هل تفضلين البقاء هنا حتى ينقشع الضباب؟ سوف تظل الحال كذلك حتى صباح الغد على الأقل.

– كلا.. لا أستطيع. فقد أحسست بأنني لم أرك منذ مدة طويلة. وفاتتني مكالمتك هذا الصباح، ثم مرة ثانية في فترة ما بعد الظهيرة. كنت أريد أن أراك فقط.

– وكنت أنا أيضًا أريد أن أراك، ولكن ليس هنا.

www.rewity.com

–ولكن ما الفرق؟

– إذا كنت تريدين أن أشرح لك فهذا يعني أنك أكثر سذاجة بكثير مما كنت أظن.

– إنني لا أستطيع أن أتحمل مشاعري تجاهك!

– إنك تقولين كلامًا لا معنى له يا «جولي».

– إنني أتحدث إلى إنسان متحجر. هذا هو كل شيء. وقبل أن تجد الفرصة للاعتذار عما بدا منها، وجدت نفسها بين ذراعيه وهو يقول:

– ليتني كنت متحجرًا. وضمها طويلاً إليه. وحملها بين ذراعيه ولم تكن تتبين إلى أين يأخذها. وتغير وقع خطواته وأدركت بعد لحظة أنه يصعد بها الدرج، فدفعته بقوة بعيدًا عنها وهي تقول:

– إلى أين تأخذني؟ اتركني.. اتركني. وخفضت قبضته الوحشية صوتها الواهن وهي تلتمس منه أن يتركها دون جدوى، لكنه ما لبث أن أعادها إلى وضعها واقفة على قدميها. كان ضوء الدرج الخافت يرسل بعض أشعته إلى الحجرة التي كانا يقفان فيها، واستطاعت أن تتبين أنها كانت حجرة نومه. وتنهد «ستيف» في نعومة وقال:

– أريدك يا «جولي». لا أستطيع أن أنكر ذلك.

– لماذا؟

– لأنك امرأة وأنا رجل. هل تريدين شيئًا أقوى من ذلك؟! وأجابت «جولي» في بطء وحزم بعدما رفعت رأسها إلى أعلى لتتفحص ملامحه المقنعة، وعلى وجهها بدت نظرات حبها الحقيقي له:

– نعم يا «ستيف» يوجد ما هو أقوى من ذلك؟

– إنك تقولين ذلك، لأنك ما زلت شابة صغيرة، ولكنك لم تجربي كيف يتقلب الإنسان؟

– هل أنت متقلب؟ وهل تعتزم أن تنساني؟

– لا أقول إنني كذلك تمامًا، لأنك شخصية متميزة طبيعية وسخية.

– أظن أن من واجبي أن أشكرك على هذا المديح.

– لم أقصد قط أن أؤذيك يا «جولي»، إنني سآخذك إلى بيتك الآن.

– لا تأسف عليَّ يا «ستيف». لقد أخبرتني الخالة «بريجيت» ذات مرة بأن الحب الحقيقي شيء نادر، وقليلون هم الذين يعثرون عليه لأن معظم الناس أنانيون لا يستطيعون أن يعطوا من أنفسهم إلا بطريقة مصطنعة. وسألها في برود:

– وهل تعتقدين أنني واحد من هؤلاء؟ واعترفت «جولي» في قرارة نفسها أنه لم يكن واحدًا من هؤلاء على الرغم من أن أقواله وتصرفاته تؤكد ذلك. وبدا الاضطراب واضحًا على وجهها. وسألته وهي لا تدري أنها كانت تتكلم في لهجة استعطاف:

– قل لي.. لماذا عاملتني بالطريقة التي تصرفت بها الآن كما لو كنت غانية أو شيئًا من هذا القبيل؟!

– تريدين الحقيقة؟ لأنك كنت تطلبين ذلك بسذاجة. وصاحت في غضب:

– لم أطلب ذلك. كانت على وشك أن ترفع يدها لتصفعه، ولكنه كبل معصمها ليمنع مثل ذلك الهجوم.

– لم تطلبيه بطريقة شعورية.

– إذن لماذا حاولت أن تستغلني؟

– أستغلك؟! يا لها من كلمة قديمة لا يستخدمها إلاّ المتخلفون. وهزت رأسها في حيرة وقالت:

– أكاد لا أفهمك. تتصرف في وقت وكأنك تهتم بي، وفي لحظة أخرى تبدو وكأنك بلا إحساس ولا عاطفة تجاهي. وانضمت شفتاه في خط مقطب وهو يحدق إليها دون أن يجيب. ولمحت عينيه تضيقان ولاحظت مرة أخرى كم كانت رموشه طويلة وكثيفة. وظل لحظة يحدق بطريقة ناعسة من خلال نظرات عميقة وقال:

– ليس هذا هو الوقت ولا المكان للحوار الذي تريدين أن تجريه. وسار أمامها

www.rewity.com

متجها نحو الدرج. وعندما وصل إلى منتصف الدرج نظر إليها وقال:

– هيا، سأوصلك إلى البيت. وترددت «جولي» بعض الشيء؛ إذ خطرت لها فكرة أخرى وقالت في صوت مضطرب:

– «ستيف».. هل تستغلني لتنسى.. لتنسى «كلودين»؟ وقطب قائلا:

– ما الذي وضع هذه الفكرة في رأسك؟

– لقد سمعت.. ثم توقفت وهي تعرف أن أي ذكر لاسم «جي» سوف يجعله يعلق بطريقة ساخرة، وواصلت قائلة:

– سمعت أن الرجال يبحثون أحيانًا عن نساء أخريات لينسّوا امرأة معينة. وسألها في هدوء مشوب بالإنذار:

– أتريدين أن أحملك مرة أخرى لأهبط بك الدرج؟ وألحت في السؤال:

– هل صحيح أنك.. إن الرجال يفعلون ذلك؟

– نعم صحيح. فإنه لشيء مجد ولكنه لا ينطبق على هذه الحالة، على الرغم من أن الاحتمال المضاد قائم.

– هل تعني أنك تريد أن تنساني؟ وتنشقت «جولي» أنفاسها بينما يضيء شعاع من الأمل عينيها، وتابع قائلا:

– وخاصة عندما تختبرين صبري كما تفعلين الآن. لآخر مرة.. سأوصلك إلى المنزل.. هيا.. اهبطي! وشعر «ستيف» بأنه إزاء حالة من حالات الاكتئاب الغريبة.

كانت «جولي» تتذكر في سرعة ما صاحب تلك اللحظات الانفعالية التي وقعت بينهما قبيل ذلك بوقت قصير إلى الدرجة التي جعلتها تصر على مزيد من الحديث حولها بينما أوضح لها أنه لا يريد أن يستعيدها. وكانت مشاعرها تجاهه مختلفة إلى الدرجة التي جعلتها غير واثقة بحقيقة تلك المشاعر. لم تكن بالفعل تعرف حقيقتها، بل زاد شكها. كان شيئًا معقدًا لا يمكن لخبرتها المحدودة أن تستطلع كنهه، وأدركت أنه كان يعرف ذلك أيضًا. وتمكنت مصابيح الإضاءة في السيارة «البيك آب» أن تكشف الرؤية

بطريقة أفضل، وكانت السرعة التي تسير بها أبطأ من المعتاد، ولكنها كانت أسرع مما كانت تقود به «جولي» سيارتها في رحلة القدوم. كان «ستيف» يوليها كل اهتمامه، ولكنها بدت وهي تجلس على الكرسي المجاور له جسمًا بلا حراك. وعندما توقفت السيارة أمام بيت «لوبلان» ترك «ستيف» المحرك دائرًا ليوحي لها بأنه لا مكان للوداع الطويل. وقال لها:

– سأحضر سيارتك في الصباح وقد يكون ذلك قبل أن تستيقظي من النوم. كانت كلماته الخشنة تدل على أنه يستعجل الانصراف. ومدت «جولي» يدها إلى مقبض الباب، ووجدت يده تمتد إلى ذراعها لتسبقها وهو يقول:

– يجب عليّ أن أذهب إلى «نيوأورليانز» غدًا لقضاء عمل، وسأبقى هناك أيامًا. وسألته وهي تعرف أن نغمة صوتها كانت تعكس المشاركة:

– ماذا تريد أن تقول لي؟ ولكن برود «ستيف» كان قد ساءها وأرادت أن ترد عليه، بالطريقة ذاتها واكتفى «ستيف» بأن اصطنع تنهيدة غاضبة ومد يده ليفتح الباب وهو يقول:

– لا أدري.. طاب مساؤك يا «جولي».

- 12 -

– أين كنت؟ كانت «جولي» قد أسرعت إلى داخل المنزل وصعدت إلى قرب منتصف الدرج عندما فاجأها سؤال «كلودين» وجعلها تتوقف فجأة. كان كل ما تريده أن تلوذ بحجرتها لتذرف الدموع التي تحرق مقلتيها. وأجابت:

– في مهمة.. إذا كان الأمر يعنيك! وسخرت «كلودين» قائلة:

– لابد من أنها كانت مهمة مناسبة مكنتك من جعل «ستيف» يعيدك إلى هنا. كانت «جولي» على وشك أن تكمل صعود الدرج، ولكن الفتاة ذات الشعر الأسود في لون الغراب، واصلت وعيناها تلمعان مثل الفحم المتقد:

– من المؤسف أنك لم توجهي إليه الدعوة للدخول. كان بودي أن أتحدث

إليه في أمر ما، لكن يبدو أن ذلك سوف يتأجل إلى الغد.

– سيكون عليك الانتظار مدة أطول. أجابت بذلك «جولي» بطريقة تشبه الطريقة التي تحدثت بها «كلودين»، على الرغم من أنها لم تكن قادرة على مواجهة عيني المرأة الأكبر سنًا، وواصلت:

– إن «ستيف» ذاهب غدًا إلى «نيوأورليانز» وسيمكث هناك حوالي يومين.

وانطلقت «جولي» تصعد الدرج، بينما واصلت «كلودين» تقول:

– يا لحسن حظي! كانت رقة العبارة التي أطلقتها أكثر إغاظة من ألفاظ السخرية التي تحدثت بها فيما سبق.

كانت «الفولكس واغن» الحمراء تقف في مكانها السابق خلف المنزل في الصباح التالي عندما نهضت «جولي» من الفراش وكانت قد نامت نومًا متقطعًا. وبدا ذلك في النظرة المقطبة على وجهها وفي الدوائر السوداء تحت عينيها، فكم مرّة حاولت أن تجعل نفسها تدرك كيف تصرفت بطريقة غير منطقية. ولكن لم يكن في قلبها مكان للمنطق. كان هناك «ستيف» فقط، وحاولت أن تلوم نفسها، لأنها عرفته مدة لا تقل عن أسبوعين، ولكن كم من عاشقين وقعا في الحب في ساعات قليلة، ولم يكن حبهما أقل قوة أو أقل دوامًا.

وتساءلت عما يشدها إليه: هل الجاذبية الجسدية أم الافتتان أم الإعجاب برجل أكبر سنًا وأكثر خبرة؟ لعل كل صفة من هذه كانت السبب، ولكنها كانت تعلم أن لا شيء من هذه جميعًا، تمامًا كما عرفت من قبل أنها لم تحبب «جون» بالطريقة التي يجب أن تحب بها المرأة زوجها.

لو أنها فقط فهمت «ستيف»! كانت تحس به مشدودًا إليها وهو يعانقها، بل لعلها أحست بشيء أكبر من ذلك، ربما كان يحبها بالفعل، ولكنه بسرعة زئبقية يعلن أنه لا يؤمن بالحب وأنه لن يتزوج أبدًا. هل كان يخشى الحب؟ لم تكن تصدق أن «ستيف» يمكن أن يخشى شيئًا، وعلى الأخص ما لا يؤذي مثل الحب. لا يؤذي! تلك أضحوكة. لتنظر ماذا يفعل بها. لقد جعلها تلتوي إلى عُقَد تحتاج إلى بحار خبير ليحلها. بحار!! كان «ستيف» بحارًا. هل

خطر لها هذا التشابه؛ لأن «ستيف» كان سبب عذابها؟

وبدا الموقف كله يائسًا في نظرها. وطال اليوم في غيبة «ستيف» الذي كان في «نيوأورليانز». وأحست بفراغ يكاد لا يصدق. وحتى لو كان هنا فلم يكن ذلك ليغير شيئًا من الإحباط الذي كانت تحس به. وتذكرت «جولي» المأساة التي كانت تعيشها قبل أن تحضر إلى «لويزيانا». وبدت تلك المشكلة صغيرة الآن أمام حبها الأزلي لـ «ستيف». كانت «جولي» تعرف أنها لا يمكن أن تبقى حبيسة المنزل طول النهار، وقد أبدت السيدة «لوبلان» اهتمامًا بالكآبة البادية على وجهها، وهي تتناول طعام الإفطار. ولم تكن تحس برغبة جادة في زيارة أي بقعة من المناطق السياحية، وتركز اهتمامها في شيء واحد أرادت أن تنجزه وهو أن تلتقط مجموعة من الصور لـ «كاميرون هول» حتى إذا عادت إلى «داكوتا الجنوبية» استطاعت أن تعرض على الأسرة صورًا عن بيت أسلافهم.

ولكن أن تعود إلى مسقط رأسها ولا ترى «ستيف» ثانية جعلها تهوي إلى أعقابها من الأسى مرة أخرى. وأخذت تتجول في أراضي المستعمرة وكلب الرعي الألماني اليقظ دائمًا يسير في أعقابها. ولكن ذلك لم ينجح في رفع معنوياتها. كان ذلك رمزًا للنهاية وهي تلتقط الصور كما لو كانت سترحل في اليوم التالي بينما كان لا يزال أمامها أسبوع من إجازتها لم يبدأ بعد. وكانت تعرف كذلك أنها لن تستطيع أن تنظر إلى الصور دون أن تفكر في مالك المستعمرة الحالي، ودون أن تتخيل منظره، ووراءه زهور الأزاليا الحمراء في لون اللهيب، والأعمدة الضخمة المستديرة. وعادت «جولي» إلى بيت آل «لوبلان» في وقت متقدم بعد ظهيرة ذلك اليوم. وكان وصولها في الوقت الذي رجعت فيه «ميشيل» و «جي». وعلى الرغم من أنها كانت تحس بالحاجة إلى الاسترخاء في حجرتها، فقد أحست أنه لا يليق ترك «ميشيل» و «جي» وحدهما، خاصة أن «ميشيل» وجهت إليها دعوة ودية للمشاركة في احتساء شراب مثلج. ولسوء الحظ اضطرت «ميشيل» إلى الانسحاب لترد على مكالمة

هاتفية، وبقيت «جولي» و «جي» وحدهما.. على الرغم من حرصها على تجنب ذلك، ونظر إليها «جي» في ابتسامة قصد بها اللهو من جهة والتمويه عليها من جهة أخرى، فقال:

– لا تبتئسي يا «جولي»! وسألته في عنف:

– ماذا تعني؟

– أرى وجهك يكتسي باكتئاب مستمر وكأنك لم تسمعي من قبل تحذيرًا بأن هذا قد يحدث!

– لا أستطيع أن أفهم ما تعنيه. ما الذي يمكن أن يحدث؟ ونهضت على قدميها في تأهب للدفاع عن النفس، واتجهت لتطل من النافذة ولم تكن ترى العصفور الأحمر المغرد يرفرف بجناحيه حول شجرة الماجنوليا.

– «كلودين» و «ستيف» بالتأكيد! وقالت بلا شعور:

– «ستيف» في «نيوأورليانز».. أليس كذلك؟ وهز رأسه في حيرة وقال:

– إنك حقًا لا تعرفين. هل تعرفين؟ وأحست بهاجس غريب يتسلل إلى صدرها، وسألت:

– أعرف ماذا؟

– لقد ذهبت «كلودين» مع «ستيف» إلى «نيوأورليانز».

– لا! وشهقت نفسًا وأخذت تهز رأسها في شك وهي تقول:

– لا. هذا غير صحيح. وحاصر حلقها بكاء هستيري كتمته «جولي» بيد منقبضة وضعتها على فمها. لقد فهمت الآن الأسباب التي وراء ما قاله «ستيف» الليلة السابقة. كان يحاول بلباقة أن يخبرها بأنه لا يهتم بها، وهو لا شك يقدر مدى أحاسيسها. كان يحاول أن يجعلها تدرك أن مشاعره ليست بالدرجة ذاتها، بل لقد ألمح إلى أنه قد يستخدم «كلودين» لينسى «جولي» وكأنه كان يهيئها للخبر الذي ألقى به «جي» الآن. كان «جي» قد اقترب خلفها ووضع يديه برقة على كتفيها وهو يقول:

– إنك وقعت في حبه حقًا.. أليس كذلك؟ لم تكن «جولي» تثق بقدرتها على

الكلام دون أن يتهدج صوتها بالبكاء، واكتفت بأن أومأت بالموافقة وواصل يقول:

– أنت أيتها المجنونة الصغيرة. وراح يهزها قبل أن يحتويها بين ذراعيه، وتابع:

– لقد أخبرتك بأن «كلودين» سوف تنتصر. وأجابت «جولي» بصوت مرتجف بعدما رفعت إليه عينيها المليئتين بالدموع:

– إنها لم تنتصر! ألا تفهم؟ إن «ستيف» لا يهتم بأي منا. حاول أن يقول لي ذلك الليلة الماضية.

– هل رأيته الليلة الماضية؟

– نعم، رأيته فترة وجيزة. لم تكن «جولي» لتخبر «جي» بأن «ستيف» حاول أن يغتصبها. وواصلت تقول:

– ماذا أفعل يا «جي»؟ لا أستطيع أن أواجهه مرة أخرى. لا أستطيع. وعلق «جي» وهو يضغط على أسنانه:

– لم يكن من حقه أن يلهو بك.

– لم يعد هناك وقت للتفكير في ذلك الآن. فضلاً على أنها ليست غلطة «ستيف» أنني وثقت به. وأضافت في رزانة بعدما زال أثر الصدمة الأولى:

– أعتقد أن الوقت حان لكي أعود.

– إلى «داكوتا الجنوبية»؟

– نعم. لقد انتهيت من مشكلة هناك لأقع في مشكلة أخرى هنا. ومسحت الدموع عن وجنتيها ورفعت كتفيها وتابعت تقول:

– لقد كان التغيير هو العلاج آنذاك، وأعتقد أنه العلاج الفعال الآن.

– لكن ما زال أمامك أسبوع آخر وفقا للبرنامج.. ولقد أخبرت أمي بذلك.

– أعرف خطتي. لكن أعتقد أنه من الأفضل أن أعدل هذه الخطة الآن.

وفي المساء، حول مائدة العشاء، أعلنت «جولي» لأسرة «لوبلان» عن اعتزامها الرحيل. وانتحلت عذرًا لذلك أنها تلقت خطابًا من والديها ينبئانها بمرض

www.rewity.com

إحدى قريباتها على الرغم من أن ذلك لم يكن صحيحًا، مما جعلها تتخذ قرارها المفاجئ. ورأت أنها إذا حزمت أمتعتها الليلة وحملتها إلى السيارة في الصباح فسوف يكون بإمكانها أن تتخذ طريق العودة قبل رجوع «ستيف» و«كلودين» من «نيوأورليانز». ولم تكن «جولي» قد وضعت في تقديرها حسابًا للاعتراضات التي أثارها «إميل لوبلان» الذي صمم على أنها ينبغي ألا تبدأ الرحلة الطويلة دون أن يتم فحص سيارتها في أحد الجراجات المحلية. وحاولت يائسة أن تقنعه بأنها سبق أن فعلت ذلك بعناية قبل رحلة القدوم من «داكوتا الجنوبية»، وأنه لا داعي إطلاقًا إلى تكراره ثانية. ولكنه كان صلبًا عنيدًا، وصمم على أن «جولي» التي أصبحت بمثابة عضو في أسرته في خلال إقامتها القصيرة، ينبغي ألا تقوم بتلك الرحلة الطويلة في ظل احتمال حدوث أي خلل آلي في سيارتها. وعززت السيدة «لوبلان» كلامه بأن الغد يوم السبت وأن عطلة الأسبوع ليست الوقت الملائم للقيادة ثانية، ولكنها رفضت الانتظار حتى يوم الاثنين. وقررت أن تبدأ رحلة العودة يوم الأحد بغض النظر عن ازدحام المرور.

وعندما حان عصر السبت كانت «جولي» قد أتمت حزم أمتعتها وكانت على استعداد لوضعها في السيارة. وأوصلها «جي» بسيارته إلى الجراج المحلي لتأخذ سيارتها التي لم تحتج إلا لبعض الإصلاحات البسيطة. وحدقت «جولي» نحو الشاب الصغير الذي أصبح سندًا لها في صمت وهي تدفع فاتورة إصلاح السيارة وسألته في صوت هادئ:

– متى تظن أنهما سيعودان؟ ولم تكن تحتاج إلى أن توضح له أن من تقصدهما هما «كلودين» و «ستيف»، وأجاب:

– أظن أنه لا يفضل القيادة في الظلام بسبب الضباب، وأعتقد أنهما قد يصلان في أي وقت من الآن حتى الغروب. وعندما عاد «جي» و «جولي» إلى بيت «لوبلان» علما أن «ستيف» حضر منذ قليل لإيصال «كلودين وقفل راجعًا. وأحست بالارتياح؛ لأنها لم تضطر إلى مقابلته بالمصادفة. وشعرت بتعاطف

الأقدار معها، لأنها كانت في الجاراج تتسلم سيارتها عندما حضر، وبذلك وفر عليها مزيدًا من الارتباك. حتى «كلودين» لم تكن موجودة؛ إذ كانت قد دخلت الحمام بعد رحلة في الجو الرطب الحار من «نيوأورليانز». وأحست «جولي» بالسعادة؛ لأنها لن تضطر إلى مواجهة الابتسامة المصطنعة من الفتاة الأكبر. كانت «جولي» و «جي» في الخارج يرتبان الأمتعة في «الفولكس واغن» الصغيرة عندما جاءت «ميشيل» إلى الباب الخلفي وأخبرت «جولي» بأنها مطلوبة على الهاتف، وسألت «جولي» وهي تنظر في توجس إلى «جي»:

– من المتكلم؟ وأجابت «ميشيل»:

– لم أسأله، ولكنني أظن أنه «ستيف». وتحدثت إليها «جي» قائلا:

– هل تريدين أن تقولي له إنك مشغولة ولا تستطيعين الحضور للرد على الهاتف؟ واستخدمت «جولي» الفرشاة في تمشيط شعرها وتنشقت نفسًا عميقًا وقالت:

– لا.. لن يحاول أن يثنيني عن رأيي. كان صوت كلماتها يدل على شجاعة كبيرة، ولكنها كانت تحس برغبة في الهرب وهي تمسك سماعة الهاتف الموضوعة على المنضدة في الصالة. وحدثت نفسها: «تشجعي!» ثم قالت في السماعة:

– نعم؟ وكان في صوتها شيء من البرود وكأنه صوت من يتحدث حول العمل، ولكن ركبتيها كانتا ترتعدان كأنهما خليط هلاميّ.

– ألو «ستيف» يتكلم. لم تكن سيارتك هناك عندما أحضرت «كلودين». وتعجبت «جولي» من طريقته؛ إذ كيف يجرؤ على أن يتحدث بلا مبالاة. وأجابته بما لا يدل على شيء:

– لقد سمعت أنك رجعت من «نيوأورليانز».

– كانت هناك مباراة كرة قدم، وكان المرور مزدحمًا... وإلا لكنت قد عدت في وقت مبكر. وأحست «جولي» أنه ليس في وسعها أن تحتمل ذلك الحديث فقالت:

www.rewity.com

– إنني سعيدة، لأنك اتصلت هاتفيًا. وكان في نيتي أن أتصل بك فيما بعد لأخبرك بأنني عائدة غدًا إلى «داكوتا الجنوبية». وأجاب في صوت خفيض لم تكد تسمعه:

– ماذا؟

– نعم. إن إحدى خالاتي في المستشفى وقد كتب إليَّ أهلي يقترحون عودتي. ولقد حدث ذلك فجأة على ما أعتقد، وهي تحتاج إلى هذه العملية. وخطر لها أنها تكرر الكلام وكأنها تحاول أن تقنعه بصحة أسباب عودتها. وعلق في جفاف:

– ولكن ذلك جاء بطريقة مفاجئة للغاية.

– نعم.. حسنًا.. لقد أردت أن أقول وداعًا قبل أن أرحل. وهذا هو السبب الذي كنت سأطلبك من أجله فيما بعد. وتحدث في بطء وبوضوح تام:

– أريد أن أتحدث إليك يا «جولي».

– آسفة، فلدي الكثير من العمل قبل الرحيل: حزم الأمتعة وسواه. بحيث يبدو من المستحيل حقًا بالنسبة إليَّ... وجاء صوت «كلودين» يقول:

– هل «ستيف» على الهاتف؟ ووضعت «جولي» يدها على السماعة حتى لا يصل الصوت إلى «ستيف». كانت «كلودين» تنظر إليها عبر حاجز الدرج وكانت ترتدي فستانًا أخضر من نسيج وبري يصل إلى ركبتيها. وأجابتها «جولي»:

– نعم، إنه «ستيف». وطلبت «جولي إلى «ستيف» أن يبقى على الخط لحظة قبل أن تستدير إلى «كلودين» وتسألها:

– هل هناك شيء تريدين أن تحدثيه عنه؟ وأجابت «كلودين»:

– نعم. إنني لا أجد قميص النوم الأخضر، ولقد بحثت عنه في كل مكان ولكن يبدو أنني قد وضعته دون قصد في حقائب «ستيف». هل تسألينه؟ وتذكرت «جولي» في شيء من الغضب والحقد ذلك الرداء الأخضر المزرق الذي يشف عما تحته والذي كان يذكرها بريش الطاووس. وهزت «كلودين» كتفيها عندما

لاحظت مشاعر الغضب تبدو على وجه «جولي»، وأخذت السماعة في هدوء وقالت:

– «ستيف»، أنا «كلودين». ونظرت إلى «جولي» التي تسمرت قدماها على الأرض بابتسامة عذبة قاتلة:

– أنت تذكر قميص نومي الأخضر المزرق. أنا لا أجده وأحسبه قد اختلط مع حاجاتك؟ هل وجدته؟ لا... ليس من الضروري.. يمكنني أن أحضر لآخذه غدًا. «جولي»؟

وارتسمت على وجهها علامة استفهام كبيرة. وعندئذ استدارت «جولي» وخرجت في بطء وتعال من الصالة إلى الخارج.

لم يحاول «جي» أن يثير أية استفسارات حول المكالمة، فقد لاحظ تعبيرًا مكتومًا على وجه «جولي» التي واصلت العمل في حزم الأمتعة في شيء من الانتقام. وأتمت وضع كل شيء داخل السيارة بما في ذلك الخرائط التي تحدد لها الطريق في أقل من نصف ساعة. وعندما أغلقت أبواب السيارة كان الغسق الأرجواني يتصارع مع ظلمة الليل، وقد أمسى كل شيء على أتم استعداد لرحلة الصباح. ودخل «جي» إلى المنزل قبل ذلك بدقائق قليلة ليعد بعض المرطبات.

ومسحت «جولي» قطرات العرق عن جبهتها واستدارت متجهة إلى الباب الخلفي لتلحق به. ولم تكد تخطو خطوتين حتى انغلق الباب الداخلي ووجدت أمامها شبحًا عالي القامة يقف في طريقها. وتوقفت لحظة وفكرت في الهرب، لكنها لم تستطع وارتسم على فمها خط من الكآبة وهي تسير نحو «ستيف». وكان في وسعها وهي تقترب منه أن ترى آثار التعب على وجهه، ولكنها رفضت أن تجعل الشفقة تضعف من تصميمها أو من ضربات قلبها المكبوت. وبدت عيناه في الضوء المعتم في زرقة أكثر قتامة وهما تلاحظان اقترابها منه.

– ما كنت تحتاج إلى أن تكلف نفسك عناء الحضور. قالتها في شيء من

www.rewity.com

البرود، وتوقفت على بعد خطوات منه، وسخر منها قائلا:

– صحيح؟ وقالت وقد جعلتها الكبرياء ترفع ذقنها بدرجة أعلى قليلاً مما اعتادت:

– لقد تبادلنا كلمات الوداع عبر الهاتف. ولم يكن يحتاج إلى أن يذكرها:

– ولكن محادثتنا الهاتفية قطعت.

– غير أننا كنا قد قلنا كل ما هو مهم قبل ذلك. وكانت «كلودين» قلقة تريد التحدث إليك. كانت نظرته تحوم مستفسرة عبر وجهها وهو يقول:

– لقد أعدت إليها رداءها المفقود. وواصلت تجيبه في هدوء:

– كان ذلك احتراما منك لمشاعرها. وأظن أنها ستقدر لك ذلك، فقد كانت قلقة لهذا السبب.

– ما الذي جعلك تقررين الرحيل بهذه الطريقة المفاجئة؟

– لقد شرحت لك. إن خالتي مريضة.

– أنا لا أصدقك. هل يعقل أن يسبب لك مرض الخالة مثل هذا القلق؟

وانتهزت «جولي» الفرصة لتعزز أسباب الرحيل، فقالت:

– إن الخالة «بريجيت» لها مكانة خاصة، فهي التي زودتني بالمال للحضور إلى هنا. وصلتي بها قوية للغاية، ولذلك فمن الطبيعي عندما تمرض ألا أكتفي بهز كتفي كما لو كان الأمر بهذه البساطة. وبدأ يستسلم لصدقها على الرغم من أنها كانت ترى آثار الشك على وجهه تتصارع لإقناعه بعدم تصديقها. كانت هذه فرصتها للرحيل لعلها تنقذ كرامتها دون أن تخدش. وأوشكت على الحركة ولكن صوته أوقفها وهو يقول:

– لديَّ شعور بأن هناك شيئًا لا تريدين أن تصرحي به. وبلعت ريقها، وقالت:

– لا أدري ما هو؟ وأخذت تجهد عقلها كي تكتشف ما إذا كانت هناك ثغرة في قصتها، وواصلت تقول:

– أنا.. لم.. لم أشكرك، لأنك أتحت لي فرصة التعرف إلى الملامح المحلية

مما جعل لرحلتي مغزى خاصا. وارتسمت على وجهه ابتسامة مريرة متسائلة حبست أنفاسها، وقال:

– «شيء أكثر». «شيء أكثر». العبارة ذاتها التي قالتها في مناسبة سابقة ربطتها به وواصل يقول:

– لقد حاولت أن أجعل «لويزيانا» تتجسد في صورة حية أمامك. لم يكن باستطاعتها أن تقول له إنه قد جعلها تستمتع بالحياة وإنها قد أدركت في النهاية مدى قوة انفعالاتها كامرأة. واكتفت بأن اصطنعت ابتسامة من أعماق آلامها، وقالت وهي تحاول أن تسير على رجليها المرتعشتين إلى أول عتبة للدرج في البيت:

– لقد أتحت لي فرصة سعدت فيها برفقة شاعرية. وقال في شيء من السخرية:

– رفقة شاعرية ممتازة كما يحدث على ظهر السفن. وأجابت بسرعة وهي تحاول أن تزيح عن كاهلها أثر كلماته الخبيثة:

– نعم. إنه غريب حقًا كيف تجعل العودة إلى الوطن الفتاة تعود إلى عالم الواقع. وبدت في عينيه نظرة احتقار جعلتها تشعر بالسعادة وهو يقول:

– بلا مشهد يثير الارتباك.. وبلا وعود بالحب الذي لا يبلى.. لعله أفضل كثيرًا هكذا.. وأعتقد أنك سعيدة الآن بكون عواطفك لم تؤد بك إلى ارتكاب غلطة كنت ستعيشين نادمة بسببها. كان «ستيف» يشير إلى لقائهما السابق ليلة الضباب، ولكن «جولي» كانت تقابل كلماته بالصمت الذي لاذت به حتى لا تصرح بحبها له. ولم يكن في وسعها أن تتحمل إشفاقه عليها، فقالت هامسة والدموع تتجمع وتومض في عينيها:

– نعم.

– والآن سوف يكون في وسعك أن تتحدثي إلى صديقاتك عن الرجل الذي قابلته بجانب الرافد. وأدارت «جولي» رأسها بعيدًا عن لهب الثقاب وهو يشعل سيجارته وقالت:

www.rewity.com

– لقد كانت حقًا مطابقة كاملة. كيف اتضح أنك «إيتيان»، ثم كيف اتضح أن «إيتيان» هو «ستيف» مالك «كاميرون هول»! ووافقت في صوت متزمت، فقد كانت تعرف تماما أنها لا يمكن أن تحكي لأي شخص القصة الكاملة ولو على سبيل الثرثرة. وبدأ «ستيف» يتحدث وكأنه يخاطب نفسه قائلا:

– أعتقد أنك كنت على حق عندما قلت إنه لا يوجد شيء آخر يمكن أن يستمر الحديث بيننا حوله. ولقد بدأت أفكر في أنني يجب أن أندم على اليوم الذي دعوت فيه نفسي إلى مشاركتك الوجبة التي كنت تأكلينها يوم الرحلة. وكانت على الرغم من الظلام تستطيع أن تتبين أنه كان ينظر إليها. ومضى يقول:

– أعتقد أن هذا هو الوداع إذن. ومد يده نحوها، وترددت في أن تمد يدها إليه. فقد كانت تعرف أن ملمس يده لن يزيدها إلا رغبة متأججة في أن تلقي بنفسها بين ذراعيه، ولكنها استطاعت السيطرة على نفسها وهي تصافحه، وقد شعرت بدفء قبضته القوية يسري إلى أعلى ذراعها خلال جسدها. وإن كانت لم تخف الألم البارد الذي يخفق في قلبها والذي جعل صدرها يحس كما لو كان على وشك أن ينفجر. وقالت في رقة:

– وداعًا «ستيف». وأحست بأن لفظة الوداع حكم قد صدر عليها بأن تعيش وحيدة طوال حياتها. وتمتم «ستيف» في سخرية قبل أن يطلق يدها:

– أيتها العصفورة.. أيتها العصفورة.. طيري وعودي إلى وطنك البعيد. رحلة موفقة يا «جولي».

كان الضوء المنبعث من المنزل يجعل كل شيء في الخارج يبدو أكثر قتامة. وبدت الأشجار كنسيج العنكبوت أمام أول نجوم بدأت تتلألأ. وبدا «ستيف» كشبح قاتم قبل أن يبتلعه الظلام ويختفي عن الأنظار. كان في وسع «جولي» أن تعرف الآن لماذا لم يتحطم قلبها كليًا. لقد تصورت أن «ستيف» سوف يصر على عدم تصديق قصتها الهزيلة ويضمها بين ذراعيه بقوة ليخبرها بأنه يحبها إلى الدرجة التي تجعله يمنعها من الرحيل. ولكنه بدلاً من ذلك

اكتفى بأن قال لها: «رحلة موفقة». لقد كان سعيدًا بذهابها. وأراد أن يصدق قصتها. وكان سعيدًا كذلك عندما اعتبرته مغامرًا رومنسيًا. كانت تلك هي الحقيقة، بغض النظر عن النتائج بالنسبة إلى قلب تحطم. وارتعدت «جولي» وأحست فجأة ببرودة قاسية ومخيفة.. وبالوحدة والفزع.

- 13 -

لم تعد «جولي» إلى مزرعة والديها بل اتجهت إلى شقة خالتها «بريجيت» عند شلالات «سيو». وبعد العناء الذي قاسته في رحلتها الطويلة إلى «داكوتا الجنوبية» حيث رفضت أن تسمح لحزنها بأن يعبر عن نفسه من أي منفذ، كان من الطبيعي لدى رؤية خالتها أن تطلق العنان لانفعالاتها ودموعها. وتحملت خالتها «بريجيت»، بطبيعتها العملية، مسؤولية التصريح بما لم تستطع «جولي» أن تصرح به. إنه كان من المستحيل بالنسبة إليها أن تعود لتعيش في منزل أبويها. ولم تمض أيام قليلة حتى حصلت «جولي» على وظيفة مسؤولة عن التغذية في مؤسسة خاصة للتمريض. وكان المرتب ضئيلا للغاية ولكنها لم تكن تهتم كثيرًا بالنقود، فقد كانت تحتاج إلى العمل لتشغل تلك الساعات المليئة بالذكريات المؤلمة.

وأصرت خالتها على أن تشغل «جولي» غرفة النوم الثانية في الشقة، ولو لفترة محدودة، حتى تستطيع الاعتماد على نفسها عاطفيًا وماديًا. وكان من حسن حظ «جولي» أنها نزلت لدى خالتها «بريجيت» التي كانت تطمئن إلى مأكلها وخروجها إلى العمل في الموعد المناسب، وكانت تتخذ القرارات التي لا تستطيع «جولي» أن تهتم بها.

وكان الأسبوع الأول نموذجًا سارت على منواله الأسابيع التالية، فكانت «جولي» تنهض في الصباح وتذهب إلى العمل، وتعود إلى البيت، وتتناول طعام

www.rewity.com

العشاء الذي تعده «بريجيت»، وتعاون في أعمال المطبخ، وتقرأ أحد الكتب، أو تشاهد التليفزيون، ثم تذهب إلى الفراش.

وعندما حانت أعياد الميلاد بذلت «جولي» أولى محاولاتها للمشاركة في بهجة العيد لعلها تتخلص من العبء الذي جعل حياتها أشبه بالغيبوبة. وبذلت جهدًا كبيرًا لتختار الهدايا الملائمة لكل عضو من أفراد الأسرة. وكانت أصعب الهدايا في الاختيار هي هدية أبيها، فعندما كانت تدخل قسم الرجال في أي محل تتخيل كيف يمكن أن يبدو «ستيف» في أي من الأزياء.

وحرصت الخالة «بريجيت» على أن تشجع فيها الحرص على الاحتفال بالعيد فأشركتها في شراء مستلزمات الزينة وإن بدت هذه تافهة في السنوات السابقة. فقد كانت عادة تقضي العطلات المدرسية في المزرعة. أما هذه السنة فقد قررت أن تقضيها في الشقة مع «بريجيت»، إذ لم يكن لها سوى يوم عطلة واحد من العمل.

وكانت «جولي» في كثير من الأحيان تبدو مبتهجة تمامًا، ولكنها كانت أيضا تتبادل مع خالتها نظرة معينة تتبعها دائما تنهيدتان صامتتان. لم تكن لتخدع نفسها أو خالتها، فقد كان «ستيف» لا يزال يحتل المكان الوحيد في قلبها.

كانت هناك حفلة ميلاد صغيرة للمرضى في مؤسسة التمريض، وكان معظمهم من المسنين. وكانت «جولي» قد تطوعت للخدمة ساعات أطول وللمعاونة في أعمال التنظيف.

وراودها شعور متزايد بالإحباط عن ذي قبل وهي تحس بترانيم الميلاد تتردد في أذنيها. ربما كان ذلك لأن كثيرين من المرضى كانوا بلا عائلات، أو أن عائلاتهم لم تكن راغبة في إيوائهم. وزاد خوفها من المستقبل.

وعندما خطت «جولي» خارج بيت التمريض رفعت ياقة معطفها حول رقبتها لتحمي نفسها من برد الرياح الشمالية، وأحست بصوت الجليد يتشقق أسفل حذائها بينما كانت ذرات الثلج المتناثرة في الهواء تنبئ بمزيد من الجليد قبل أن يحل الصباح. وربتت بيدها لوحة أجهزة القياس في سيارتها «الفولكس

واغن» بحب وإعزاز عندما دار المحرك مع أول حركة من المفتاح. وكانت تحمد الله لقرب مسكنها من العمل في مثل تلك الأجواء السيئة.

وبدأت أفكارها تشرد عائدة من جديد إلى «لويزيانا»، وإلى «ستيف»، كعادتها عندما تتحرر من واجبات العمل. وكم تمنت أن يفعل الزمن فعله فيطفئ تلك الذكريات، ولكنه لم يفعل. كان يكفيها أن تغمض عينيها لتحس من جديد بذراعي «ستيف» حولها. وعند ذاك فإن نبضها السريع في دقاته، وقلبها المتألم في خفقانه، يسخران من أمانيها السخية في أن تنسى.

وأوقفت السيارة أمام الشقة الكائنة في الدور الأرضي. واصطنعت في حزم ابتسامة على وجهها قبل أن تعود إلى المبنى. كانت هذه لعبة تعودت أن تلعبها لترفع من روحها المعنوية المنهارة وربما عادت إليها جذوتها الطبيعية في يوم من الأيام، وكان ذلك ما أوحى إليها به تفكيرها.

وصاحت في مرح وهي تغلق باب الشقة خلفها وتقفله بالمفتاح قبل أن تخلع معطفها وتعلقه على المشجب في الصالة:

– أنا فقط. أعتقد أن الجو سيكون في الخارج عاصفًا الليلة. وأخذت تدلك ذراعيها بقوة لتؤكد ما قالته وهي تخطو من الردهة الصغيرة إلى حجرة المعيشة. كانت خالتها تجلس على كرسيها المفضل بجانب الباب مباشرة وعيناها البنيتان تلمعان في عبث باتجاه «جولي»:

– هذا هو وقت عودتك تقريبا. هناك زائر ينتظرك. كانت حجرة المعيشة تمتد على يمين «جولي». وتتبعت عيناها المتسائلتان نظرة خالتها التي تحدق إلى ذلك الاتجاه. وكان «ستيف» يقف قرب مائدة صغيرة يحمل في يده منظرًا من مناظر عيد الميلاد حصل عليه أخيرًا. كان يرتدي سترة لها حواش بيضاء فوق بنطلون من الجلد البنيّ اللون. ولكن عينيّ «جولي» انجذبتا إلى عينيه الزرقاوين، فأثرتا في أعماقها. وشحب لون وجهها. لقد كان «ستيف» أكثر وسامة مما تصورته. وسألته في خشونة وهي لا تدري أن خالتها قد خرجت في هدوء من الحجرة.

– ماذا تفعل هنا؟ وأجاب «ستيف» في هدوء بصوته المتهدج بعدما خطا خطوة نحوها:

– لقد جئت لأراك.

– اخرج من هنا.. لا أريد أن أراك. وامتدت يدها إلى حلقها لتخنق العبرات الواضحة. وواصل في تصميم قائلا:

– لديَّ ما أريد أن أقوله لك. واستدارت في سرعة وهي تقول:

– لا أريد أن أسمع. وكانت على وشك أن تهرب إلى حجرتها لولا أن يديه أوقفتاها وأطبقتا على كتفيها. ووجدت نفسها عاجزة عن مقاومة رغبتها في أن تذوب بين ذراعيه. وتمتم في أذنها:

– سأقول وليكن ما يكون. كان العطر المنبعث منها يمتزج بعطره المخدر وأضاف:

– وإذا أصررت على أن أخرج بعد أن أقولها.. فسوف أخرج. وأغلقت «جولي» عينيها بإحكام، وهي لا تحتمل اقترابه منها:

– أرجوك يا «ستيف».. دعني أذهب. لم يعد للكلام معنى بعد الآن.

– حتى ولو قلت إنني أحبك. ووجدت نفسها تلتصق بصدره وأحست بمشاعره في عناق قاس. تناول شعرها وتابع:

– لم يكن في نيتي على الإطلاق أن أقع في حبك، بل يعلم الله أنني حاولت أن أتجنب هذا الحب، بل حاولت أن أنساك. ولكن صورتك كانت تطاردني حتى قبل أن تتركي «لويزيانا». وكل ما قلته عن عدم الزواج وعدم الإيمان بالحب كنت أحدث به نفسي. لقد كنت رجلاً كثير الاحتجاج. وغمرتها أمواج من النشوة، ولكنها رفضت أن تستسلم لها. لقد جربت مثل ذلك كثيرًا في الشهور الأخيرة، وعاشت ذكريات عديدة مؤلمة. حتى عندما كان قلبها يحبه كان عقلها يقاوم ذلك بشدة. وسألته:

– حتى عندما أخذت «كلودين» معك إلى «نيوأورليانز»؟ واحتواها «ستيف» بذراعيه بحيث يتسنى له أن ينظر إلى وجهها وقال:

– كنت أعرف أنك اعتقدت أنني فعلت ذلك، وربما حرصت أنا على أن تعلمي به. لقد طلبتني وطلبت مني أن آخذها معي. ولكنني أقسم لك أن كلا منا كان يقيم في فندق مستقل. أما ذلك القميص الملون الذي تحدثت عنه فقد أخذته من أحد محلات التنظيف يوم بارحنا «نيوأورليانز» وتركته في السيارة.

– لماذا لم تقل لي ذلك؟

– كنت على استعداد لسوء التفسير، وكنت تريدين أن تجعليني أصدق أنني لست سوى خيال عابر في حياتك. غرام على ظهر سفينة. واعترفت «جولي» في شيء من الحياء:

– لم يكن قط كذلك. وألحَّ عليها وقد عادت الضراوة إلى عينيه:

– هل أنت متأكدة يا «جولي»؟

– متأكدة تماما؟! لأن هذه الأشهر الأخيرة التي قضيتها دونك كانت جحيما بالنسبة إليَّ. والتفت ذراعاها حول عنقه وجذبت رأسه تجاهها. كان شعورها هو شعور من يعود إلى وطنه بعد غياب طويل. ولم يعد هناك مكان للكلام. وجاء صوت الخالة «بريجيت» من الخارج يقول:

– هل أترك لكما بضع دقائق أم أدخل على الفور؟ ورد «ستيف»:

– ادخلي، إن ابنة شقيقتك تتصرف بشيء من البهجة. أعتقد أنها تحتاج بشدة إلى رقيبة. وعلقت الخالة «بريجيت» بشيء من الرضا والسعادة قائلة:

– الأفضل أن تقول إنها تحتاج إلى وصيفة شرف. وعانق «ستيف» «جولي» وهو يقول:

– فكري في هذا الأمر أيتها العصفورة الصغيرة. وأضاف:

– سواء قلت لك ذلك من قبل أم لم أقله، فسوف نتزوج فور حصولنا على الترخيص وإيجاد كاهن يتم إجراءات الزواج. إن «كاميرون هول» تحتاج إلى «جولي انطوانيت كاميرون» أخرى لتكون سيدة القصر. كما أن سيد القصر أيضًا يحتاج إليها. وحدقت «جولي» بحب كبير إلى وجهه، وقالت:

www.rewity.com

– لقد كان ذلك عرض زواج في وجود شاهد يا سيد «كاميرون» وأمام الشاهد نفسه أعلن قبولي. وابتسمت خالتها وقالت:

– لا أعتقد أن «ستيف» كان ينوي أن يترك لك الفرصة للاختيار. ليس لديَّ ما أقدمه في هذه المناسبة إلا شراب الكاكاو. وعلقت «جولي»:

– هل أقدم المساعدة؟ ورفضت خالتها ذلك بحزم. وقال «ستيف» موجها الكلام إلى خالتها، وهو يضع ذراعه حول «جولي» ويجذبها نحوه:

– قبل أن أنسى، لقد أخبرتني «جولي» بأنك المسؤولة عن تمكنها من القيام بالرحلة إلى «لويزيانا». وأريد أن أقدم لك الشكر على ذلك من كلينا. وإذا لم يكن لدى «جولي» اعتراض فسوف نسمي ابنتنا الأولى باسمك. ولمعت عينا المرأة العجوز بالدموع وقالت:

– هذا فقط إذا كنت سأحضر حفل تعميدها. وعلقت «جولي»:

– لنعتبر أن هذا قد تم. وتركت خالتها الغرفة على عجل وهي تقول:

– حسنًا.. من الأفضل أن أسرع بتحضير الكاكاو. وحدق «ستيف» إليها بشعور دافئ يكاد لا يصدق وقال:

– هل ضايقك هذا؟ وغطت وجنتيها حمرة الخجل، وهي تقول:

– لقد كان شيئا رائعًا. ومع ذلك يمكن أن يكون لنا أولاد كذلك.

– سنظل نحاول حتى نحصل على ما نريد. وفي هذه اللحظة لا يهمني أن يكون لي طفلان أو عشرة أطفال أو حتى عشرون طفلاً. إن كل ما أريده هو أنت. أما أي شيء آخر فيكون بمثابة منحة، ولو أنني أعتقد أن ولدًا واحدًا وبنتا واحدة شيء عظيم. قالت لاهثة وهي تحدق إلى وجهه تخشى ألا تراه ثانية:

– أوه يا «ستيف».. إنني أحبك كثيرًا. كانت تلك دعوة لم يستطع أن يقاومها، بل لم تستطع «جولي» أن تقاوم وهي تقدم نفسها إليه. وهمس هو الآخر قائلا:

– وأنا أحبك.

تمت بعون الله